مكتبتنا العربية

مفهوم البلاغة
لغة واصطلاحاً

الدكتور محمد عابد الجابري
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

قد يبدو الموضوع معاد مكرورا ، لاكته الالسن حتى عافته ، ومللت به الاسماع حتى مجته ، وهو كذلك حقاً وصدقاً ، فقد تناوله اللغويون الأوائل منذ شرعوا في جمع مواد اللغة ومفرداتها ، وبذلوا مابذلوه في إيضاح دلالاتها ، وأربى اللاحق منهم على ماذكره السابق ، حتى لم تعد هناك زيادة لمستزيد .

وعني البلغاء بها عناية اللغويين واكثر ، فلم يكتفوا بايضاح دلالة البلاغة في العربية ، وانما ذكروا ماعرفوه عنها في غيرها من اللغات. ومانقله الجاحظ من سؤالهم الفارسي ، واليوناني ، والرومي والهندي عما تعنيه البلاغة عندهم خير ما يمثل هذه العناية .

كيف لا يعنى البلغاء والبلاغيون بها مثل هذه العناية ، وهي بذرة البحث البلاغي ، والاساس الذي يستند اليه ، فلا غرابة ان قيلت فيها اقوال وأقوال على تعاقب الازمان والاجيال ، حتى استوت علوم البلاغة ، واستقرت مصطلحاتهـا عند متأخري البلاغيين ، الذين ورثوا التراث البلاغي ، وخلفوه لنا بعد أن أشبعوه بحثا وتدقيقا ، وانتهوا به الى ما انتهوا من كثرة موضوعاته وتنوعها ، والتنان بتفريع فروعها ، وشغف بحددوها وتعريفاتها ، واشارت الى اصولها اللغوية ،

مكتبتنا العربية

وتنافس في اختصار مرادها ، وشرحها ، والتعليق عليها ، وتدوين الحواشي على تلك الشروح والتعليقات وبذل مابذل من جهد ووقت في ذلك كله .

وجاء العصر الحديث ، فاكتفى اكثر المحدثين والمعاصرين من المعنيين بالبلاغة والتأليف المدرسي فيها ، بأخذ هذا الذي انتهى اليـه اولئك المتأخرون لغـة واصطلاحا ، ومنهم من عرج على لسان العرب لابن منظور ، ليأخذ منه مايوثق به الدلالة اللغوية التي ذكرها لهذا المصطلح او ذاك ، لكونه موسوعة ضمت خمسة من المعاجم اللغوية الكبيرة التي سبقته . وتهيأ لهم أنهم بهذا قد احاطوا علمـا بدلالتي المصطلح : اللغوية والاصطلاحية ، مادامو قد وقفوا على آخرما انتهت اليه اللغة والبلاغة في دلالتيه . وفاتهم أنأولئك البلاغيين كانوا قد نبهونا الى أن البلاغة لم تنضج ، ولم تحترق ، خلافا لاكثر فروع العربية ، التي تم على ايديهم نضجها واحتراقها ، فكأنهم بهذا قـد حملونا أمانة النظر فيما قالوه فيها ، وانضاجه بالبحث والدراسة ، وتلافي ماينقصها مما لم يهتدوا اليه ، أو يقولوا فيه .

كما فاتهم أن في غير اللسان من المعاجم ماليس فيه ، وان العربية لغة اشتقاقية ، تتألف من أسر اومواد لغوية ، ومعرفة اللفظ المفرد فيها لاتزيد على معرفة فرد من الافراد في اسرة من الاسر ، لاتعد شيئا اذا ماقيـست بمعرفته ، ومعرفة الاسرة كلها بجميع افرادها . ومن المعاصرين من ساير المصطلح ، ووقف على دلالته ، وماقيل فيها ، وجمع النصوص الشعرية والنثرية التي ورد فيها ، مبتدئا باقدمها الى آخر ما انتهى اليه أمره ، عندما استقرت لهذه المصطلحات دلالاتها الاصطلاحية . غير ان العمل على المعاجم اللغوية ظل مقتصرا على اللسان او كاد ، في عدد غير قليل من الرسائل الجامعية التي لم تتناول مصطلح البلاغة .

ولاأريد بهذا كله ، أن أقلل من أهمية جهود الآخرين ، فالوقوف على ما انتهى اليه اولئك العلماء الاعلام ، من البلاغيين المتأخرين ، ضرورة لاغنى لنا عنها ، بعد الذي أشرنا اليه من جهودهم فيها ، تلك الجهود التي نتمنى لو

مكتبتنا العربية

أننا جدنا على البلاغـــة ومصطلحاتها بما يقرب منها . غير أن هذا لا يعني أخذ كل ماقالوه من غير مافحص ولاتدقيق ، وكأنه بديهية من البدهيات ، أو مسلمة من المسلمات بعـــد الذي رأيناه من قولهم أن البلاغة لـــم تنضج ولم تحترق .

ومسايرة المصطلح ، والوقوف على دلالته في السياق الذي ورد فيه ، وترتيب النصوص التي تضمنته ، بحسب تسلسلها الزمني قبل أن يتخذ مصطلحا محدد الدلالة ، تلقي الضوء على تطوره الدلالي في مراحله المختلفة ، فيما تبرزه وتبرز وجهة النظر الادبية أوالفنية فيه . والبلاغة فن القول ، وصياغة الكلام ، أن تكون شيئا آخر . ولكن هذه المسايرة تفقد غير قليل من أهميتها ، اذا ما اقتصر البحث على مجرد الجمع والترتيب ، من غير ما مفاضلة ، أو ترجيح ، أو أمساك بخيط التطور الدلالي ، الذي يربط بين دلالات المصطلح المختلفة باختلاف العصور .

فالوقوف على الدلالتين اللغوية والاصطلاحية ، أمر على غاية من الاهمية ، ولا يقل الوقوف على ما بينهما ، لكون المصطلحات البلاغية ـ كما يبدو لي ـ لم ترتجل ارتجالا ، منقطع الصلة عن معانيها اللغوية ، وانما اختيرت اختيارا ، وانتقيت انتقاء . ولاختيارها وانتقائها مبررات مقنعة ، تحسب لبلاغتنا العربية ، لاعليها . فان لم نكشف اللثام عن هذه الصلة ، ظلت الحيرة في الاذهان ، ان لم تجر على اللسان . و لتدخفيت هذه الصلة على كثير من المعنيين بالبـــلاغة ، أو بدت غير واضحة ، او مقنعة لهم ، لدرجة صارت معها موضوع أخذ ورد في بعض المجامع اللغوية . فلقد تساءل استاذي الدكتور عبد الرزاق محيي الدين عضو المجمع العراقي ورئيسه السابق ـ في بحث له نوقش في المجمع ـ عن مفهومي البلاغة والفصاحة فقال : في مقدمة مايدور في نفسي مراجعته ، هـذان المصطلحان : كلمتا (الفصاحة) و (البلاغة) ، ماذا تعنيان ؟ وبأي شروط يتحقق مفهومها ؟ ؟ وما واقع الصلة ـ في حدود شروطه ـ بالآثار الادبية قديماً

مكتبتنا العربية

وحديثا؟ وهل هناك احساس بالصلة بينهما، وبين الاثر الادبي عند الحكم عليه(١) ؟ وقام الزميل الدكتور أحمد مطلوب بدراسة المصطلحات البلاغية الاربعة الرئيسة : البلاغة والفصاحة والبيان والبديع في كتاب خاص بها (٢) . ولو اتضحت هذه المصطلحات وضوحا كافيا لغة واصطلاحا ، وبانت الصلات بين معانيها اللغوية والاصطلاحية لما كان من تساؤل المجمعيين ، وتأليف المؤلفين ، بعد الذي قيل فيها قديما وحديثا .

ولست ازعم أن محاولتي المتواضعة هذه ، يمكن أن توصد الباب بوجه أقوال اخرى يمكن أن تقال في البلاغة ، كما لاأزعم أنها يمكن أن تستحدث لها دلالة لغوية أو اصطلاحية جديدة ، ولكنها محاولة تنتهج منهجا آثرته على غيره ، قوامه التحقق من مادة اللفظ اللغوية كلها في المعاجم المختلفة ، لتبين صلة اللفظ بمادته ، ودلالته اللغوية ، بالدلالة الاصطلاحية .

فاهمية هذا الموضوع — عندي — لاتنحصر في ايضاح مابدا مشوبا بشيء من الغموض في دلالته، ولافي ابراز الصلة بين دلالتيه ، وانما تتجاوزهما الى ابراز المنهج الذي آثرته وأوثره ، ولا اتردد في الدعوة اليه ، في دراسة المصطلحات البلاغية كلها .

ولم تتناول المحاولة هذا المصطلح لأهميته فحسب ، وانما لأن ماقيل فيه اكثر بكثير مما قيل في غيره ، واذا اتسع مجال القول فيه ، فهو في غيره أوسع . فهي بهذا تكون قد جاءت بالمنهج مقرونا باختباره باصعب مايمكن أن يواجهه في واقعه التطبيقي ، فاذا ما ثبت فضله على ما سواه، أخذنا به ، والاعدلنا عنه — غير آسفين — الى غيره ، فلا خير في منهج مفترض ، لايأخذ طريقه الى التطبيق ، أو طبق فلم نلمس له على غيره فضلا .

---

(١) مفاهيم بلاغية .

(٢) مصطلحات بلاغية .

مكتبتنا العربية

ولا اراني مغالياً اذا ماقلت ان اخذي به أثبت لي – في الاقل – فضاء وجدواء . فنحن الى هذا اليوم نردد ما لقناه من أن البلاغة لغة من الوصول والانتهاء من بلغت المكان ، أو الزمان ، أو المقام بلوغا : اذا وصلت اليه .. وظلت الكتب البلاغية القديمة منها والحديثة ، لاترى للبلاغة أصلا لغويا ، غير دلالة البلوغ على الوصول والانتهاء ، وكأن البلاغة مجرد ايصال المعنى الى ذهن السامع أوالقارئ . واشترطت الفصاحة في الالفاظ الموصلة للمعنى في عملية ترقيع لما في هذا المفهوم من قصور عن الوفاء بدلالة البلاغة والا فالبلوغ بمعنى الوصول والانتهاء لايلزم بذاته بهذا الذي اشترط ، ومع هذا فقد ظل هذا المفهوم – بعد اشتراط الفصاحة – قاصرا عن ان يبلغ شأو المفهوم الاصطلاحي : « مطابقة فصيح الكلام لما يقتضيه الحال » ففي المصطلح تميز للكلام لانلمسه في المفهوم اللغوي . وبدت الصلة بين الدلالتين واهية ضعيفة ، لاننا لانعت الكلام بالبلاغة لمجرد ظهور معناه ووصوله الى ذهن السامع أو القارئ وانما نعت بها الكلام المتميز ، الذي يبلغ من نفوسنا ما لايبلغه الكلام العادي .

ولو اننا فحصنا المادة اللغوية فحصاً دقيقاً ، ومحصناها تمحيصا متأنيا ، لأنتهينا الى ان البلاغة – لغة – من البلوغ ، بمعنى النضج والاكتمال ، وليست من مجرد الوصول أو الانتهاء ، فالكلام البليغ : هو الكلام المكتمل البالغ ، كالبالغ من كل شيء . وبهذا ننتهي الى المطابقة التامة بين الدلالتين اللغوية والاصطلاحية ، وما ألفه الناس في حياتهم من اطلاق البليغ على الكلام المتميز بنضجه واكتماله .

مكتبتنا العربية

البلاغـة لغـة

ذهب ابن فارس — ٣٩٥ هـ محقا — الى القول بأن « الباء واللام والغين اصل واحد صحيح ، وهو الوصول الى الشيء . تقول : بلغت المكان ، اذا وصلت اليه ، وقد تسمى المشارفة بلوغا بحق المقاربة. قال الله تعالى : (فاذابلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف [٢ الطلاق ٦٥] . ومن هذا الباب قولهم : هو أحمق بلغ : أى انه مع حماقته يبلغ ما يريد » . والبلغة : ما تبلغ به من عيش ، كأنه يراد أنه بلغ رتبة المكثر ، اذا رضى وقنع ، وكذلك البلاغة التي يمدح بها الفصيح اللسان ، لانه يبلغ بها ما يريده » (١) .

وهكذا نص صراحة على ان المادة اللغوية كلها ترجع الى الوصول لا البلاغة وحدها .

والى مثل هذا ذهب الراغب الاصفهاني — ٥٠٢ هـ ، فقال : البلوغ والبلاغ : الانتهاء الى اقصى المقصد والمنتهى ، مكانا او زمانا اوأمراً من الامور المقدرة . وربما يعبر به عن المشارفة عليه ، ان لم ينته اليه . فمن الانتهاء : بلغ أشده ، وبلغ اربعين ، وقوله عز وجل : «فاذا بلغن أجلهن فلا تعضلوهن » [٢٣٢ البقرة ٢] ، و « ماهم ببالغيه » [٥٦ غافر ٤٠]، « فلما بلغ معه السعي » [١٠٢ الصافات ٣٧] ، « لعلي أبلغ الاسباب » [٣٦ غافر ٤٠] ، «أيمان علينا بالغة » [٣٩ القلم ٦٨] : أى منتهية في التوكيد .

واما قوله عز وجل : « فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف » [٢الطلاق ٦٥] فللمشارفة ، فانها اذا انتهت الى أقصى الاجل ، لايصح للزوج مراجعتها

---

(١) المقاييس — مادة (بلغ) .

مكتبتنا العربية

وامساكها (٢) .

والى مثل هذا ركن مجمع اللغة العربية في القاهرة حيث جاء في معجمه : بلغ الشيءُ يبلغ بلوغا — من باب قعد — وصل اليه ، زمانا كان هذا الشيء أو مكانا ، أو غيرهما ، حسيا أو معنويا فهو بالغ ، وهي بالغة ، وهم بالغون .

وقد جاء في لفظ بلغ في القرآن كلمتان ، يراد بهما شارف وقارب الوصول وستذكران في موضعهما . وما عدا ذلك معناه وصول اليه . (٣)

والمعاجم اللغوية مجمعة على ربط معظم مفردات المادة بالوصول أو الانتهاء وما يتصل بهما من اقدم هذه المعاجم الى احدثها — على تفاوت بينها — وانم تنفرد المعاجم الثلاثة التي ذكرتها بهذا الربط الذي اشرت اليه . ففي العين : أبلغته ابلاغا ، وبلغته تبليغا ، في الرسالة ونحوها . . . والمبالغة أن تبلغ من العمل جهدك . . (٤) .

وفي الجمهرة : «وبلّغت الرسالة تبليغا . . . ومن أمثالهم : أحمق بلغ : أي أحمق يبلغ ما يريد . والبلغة : القوت ، يتبلغ به الانسان » . (٥) .

وفي التهذيب « : . . . ويقال بلغت القوم الحديث بلاغا : اسم يقوم مقام التبليغ . . . ويقال : بلغ فلان ، اذا جهد . . . . » (٦) .

وفي الصحاح : « . . . بلغت المكان بلوغا : وصلت اليه ، وكذلك اذا شارفت عليه . . . والابلاغ : الايصال ، وكذلك التبليغ . والاسم منه البلاغ . . » (٧) .

وفي الاساس : « أبلغه سلامي ، وبلغه . . . ووصل رشاءه بتبليغة : وهو حبل

(٢) المفردات — المادة ذاتها .
(٣) معجم الفاظ القرآن — مادة بلغ .
(٤) المادة ذاتها .
(٥) المادة ذاتها .
(٦) المادة ذاتها .
(٧) المادة ذاتها .

مكتبتنا العربية

يوصل به حتى يبلغ الماء ، وهو الدرك . ولابد لأرشيتكم من تبالغ . . . » (٨) .
وفي اللسان : « . . . بلغ الشيءُ يبلغ بلوغا ، وبلاغاً : وصل وانتهى ، والمغه هو ابلاغا ، وبلغه تبليغا . والبلاغ : ما يتبلغ به ، ويتوصل الى الشيءُ المطلوب وبلغ الغلام : احتلم ، كأنه بلغ وقت الكتاب عليه والتكليف . . . وبلغ البنت انتهى » (٩) .

وفي القاموس : « . . . بلغ المكان بلوغا : وصل اليه ، أو شارف عليه . . . وأمرالله بالغ : نافذ ، يبلغ اين يريد . وجيش بلغ كذلك ، والاسم منه الابلاغ والتبليغ ، وهما الايصال . . وتبلغ بكذا ، والمنزل : تكلف اليه البلوغ حتى بلغ . . . » (١٠) .

وفي المصباح : « وبلغ الكتاب بلاغا وبلوغا : وصل . . . وقولهم : لزم ذلك بالغا ما بلغ ، منصوب على الحال : أى مترقيا الى أعلى نهاياته ، من قولهم : بلغت المنزل : اذا وصلت اليه . . . » (١١) .

فلاشك في أن الوصول أصل أصل بارز في البلوغ ، غير انه ينبغي الا يحجب الانظار عما يحمله في طياته من بذور التفوق والتفضيل في كل ما ورد في المعاجم ذاتها من مفردات المادة اللغوية ، فالوصول يتطلب هذا التفوق ويقتضيه ، سواء كان البلوغ بلوغ مكان أوزمان ، أو أي أمر من الامور ، فالواصل أقدر من المنقطع قبل الوصول ، وأمكن منه .

ولقد فطن اللغويون الاقدمون الى هذا ، وأبرزوا دلالة المادة اللغوية عليه ، ونصوا على الجودة بالذات في مفردات المادة . وقد طالعتنا الجودة في أول معجم عربي وظلت تتردد فيما ألف بعده . حيث ابتدأ الخليل — ١٧٠ هـ — المادة

(٨) المادة ذاتها .
(٩) مادة بلغ .
(١٠) المادة ذاتها .
(١١) المادة ذاتها .

اللغوية بقوله : « رجل بلغ : بليغ ، وقد بلغ بلاغة . . . وشيء بالغ : أى جيد . » (١٢)

وقال ابن دريد — ٣٢١ هـ : « وكلام بلغ وبليغ . . . وبلغ الرجل بلاغة : اذا صار بليغا . . . » (١٣)

وأخذ الازهري — ٣٧٠ هـ عن المعنى وعزاه الى الليث قائلاً : « . . . قال الليث البلغ : البليـغ من من الرجال ، وبلغ يبلغ بلاغا . . وشيء بالـغ : أى جيد . . » (١٤)

وقول ابن فارس — ٣٩٥ هـ المقدم : « . . وكذلك البلاغة التي يمدح بها الفصيح اللسان ، لانه يبلغ بها ما يريده . . . » (١٥) اعتراف صريح بالجودة ، فالبلاغة صفة مدح يمدح بها المتفوق بفصاحة اللسان، المتمكن — خلافا لغيره — من بلوغ ما يريد بجودة لسانه .

وقال الجوهري — ٣٩٩ هـ : « . . . وشيء بالغ : أى جيد ، وقد بلغ في الجودة مبلغا . . . والبلاغة : الفصاحة . وبلغ الرجـل بالضم : أى صار صار بليغا . . . » (١٦)

وقال الراغب — ٥٠٢ هـ : . . والبلاغة على وجهين : احدهما : أن يكون بذاته بليغا ، بأن يجمع ثلاثة أوصاف : صوابا في موضوع لغتـه ، وطبقا للمعنى المقصود به ، وصدقا في نفسه . ومتى احترم وصف من ذلك كان ناقصا في البلاغة .

---

(١٢) العين — مادة بلغ .
(١٣) الجمهرة — مادة بلغ .
(١٤) التهذيب — المادة ذاتها .
(١٥) المقاييس — المادة ذاتها .
(١٦) الصحاح — المادة ذاتها .

مكتبتنا العربية

والثاني : أن يكون باعتبار القائل والمقول له ، وهو أن يقصد القائل أمرا ، فيورده على وجه حقيق أن يقبله . . . » (١٧) .

وفي الوجهين اللذين ذكرهما مافيهما من اكتمال الكلام وجودته وتميزه، وتمكن قائله وقدرته .

وقال الزمخشري — ٥٣٨ هـ : «. . . وبلغ الرجل بلاغة فهو بليغ ، وهذا قول بليغ . وتبالغ في كلامه : تعاطى البلاغة ، وليس من اهلها ، وما هو ببليغ ولكن يتبالغ » . (١٨) .

وقال ابن منظور — ٧١١ هـ : « . . . عن ابي حنيفة : وبلغت النخلة وغيرها من الشجر : حان ادراك ثمرها . وعنه أيضا : شيء بالغ : أى جيد .

والبلاغة : الفصاحة . والبلغ والبلغ : البليغ من الرجال ، ورجل بليغ : وبلغ : حسن الكلام فصيحه ، يبلغ بعبارة لسانه كنه مافي قلبه ، والجمع بلغاء . وقد بلغ — بالضم — بلاغة : أى صار بليغا . وقول بليغ : بالغ ... » (١٩)

وقال الفيروز بادى ٧٢٩ هـ : « بلغ المكان بلوغا : وصل اليه ، أو شارف عليه ، والغلام : ادرك . وثناء أبلغ : مبالغ فيه . وشيء بالغ : جيد . وقد بلغ مبلغا . وجارية بالغ وبالغة : مدركة . . :والبليغ : الفصيح ، يبلغ بعبارته كنه ضميره ، بلغ ككرم . . . » (٢٠) .

وقال الفيومي ٧٧٠ هـ : . . وبلغت الثمار : ادركت ونضجت . . . وبلغ — بالضم — بلاغة ، فهو بليغ : اذا كان فصيحا طلق اللسان . . . (٢١) .

(١٧) المفردات — المادة ذاتها .
(١٨) الاساس — مادة بلغ .
(١٩) اللسان — المادة ذاتها .
(٢٠) القاموس — المادة ذاتها .
(٢١) المصباح — المادة ذاتها .

وفي معجم الفاظ القرآن لمجمع اللغة العربية في القاهرة : « . . وقول بليغ : أي واصل منتهاه من القوة ، أو هو من بلغ — ككرم — بلاغة ، فهو بليغ بمعنى كان — أو صار — فصيحاً » (٢٢) .

من هذا كله يمكن الانتهاء الى أن البلاغة من الفعل بلغ — ككرم — حصرا ، وليست من الفعل بلغ — كقعد — خلافا للبلوغ بمعنى الوصول . فلم يرد في كل هذه المعاجم بلغ — بالفتح — بلاغة . وكونها لم تؤخذ من الفعل بلغ — بالفتح — لايعني أنها من غير البلوغ ، فهي منه واليه ، ولكنها — كما اسلفت — ليست من دلالته على مجرد الوصول ، وانما ما يتطلبه الوصول ويقتضيه من تميز وتفوق الواصل عل المنقطع فلولا هذا التميز والتفوق ، ماكان للواصل أن يصل ، والاسباب قبل مسبباتها أو نتائجها. فالبلوغ والوصول كل منهما دليل التميز والاكتمال والتفوق ، وليس بين البلوغ عنا ببعيد ، فماكان البالغ ليكلف ويكتب عليه لولا نضجه واكتماله ، ولهذا خص البالغ بالجودة في كل هذه المعاجم . وفسر القول البليغ بالبالغ ، فبلاغة الكلام جودته وتميزه ، وبلاغة المتكلم قدرته على الاجادة وتميزه على غيره بصنع الكلام الجيد المتميز . ولهذا فسرت البلاغة باللسن والفصاحة وطلاقة اللسان ، والبليغ بحسن الكلام فصيحه ، الذي يبلغ بعبارة لسانه كنه مافي قلبه أو ضميره ، فجاءت البلاغة نعتا حميدا خاصا بكلام دون سواه ، وأناس دون آخرين . وطالعتنا الجودة في كل ما عرفت به البلاغة من أقوال ، قبل قبل استقرار المصطلحات البلاغية وعند استقرارها .

(٢٢) معجم الفاظ القرآن — المادة ذاتها .

« تطور البلاغة من المعنى اللغوي الى المعنى الاصطلاحي »

حدث ابو حاتم ، قال : حدثني ابو عبيدة ، قال : حدثني غير واحد من هوزان ، من أولي العلم ، وبعضهم قد أدرك أبوه الجاهلية ، قالوا :

اجتمع عمرو بن الظرب العدواني وحمسة بن رافع الدوسي عند ملك من ملوك حمير ، فقال : تساءلا حتى اسمع ما تقولان . . فقال عمرو لحمسة : من أبلغ الناس ؟ ؟ قال : من جلى المعنى المزيز باللفظ الوجيز ، وطبق المفصل قبل التحزيز . (٢٣)

وتطبيق المفصل واصابة المحز من الامثال العربية للحذق ، والمهارة في الكلام ، واصابة المعنى بالقول الموجز .

قال الجاحظ : ويقولون في اصابة عين المعنى بالكلام الموجز : فلان يفل المحز ، ويصيب المفصل . وأخذوا ذلك من صفة الجزار الحاذق ، فجعلوه مثلا للمصيب الموجز » (٢٤) واضاف قائلا :

« . . . وقد فسر ذلك لبيد بن ربيعة ، وبيّنه ، وضرب به المثل حيث قال في الحكم بين عامر بن الطفيل ، وعلقمة بن علاثة :

ياهرم بن الاكرمين منصبا ... انك قد أوتيت حكما معجبا

فطبق المفصل ، واغنم طيبا

يقول : احكم بين عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة بكلمة فصل ، وبأمر قاطع . فتفصل بين الحق والباطل ، كما يفصل الجزار الحاذق مفصل العظمين » (٢٥)

---

(٢٣) العقد ٢/٢٥٦ . والمزيز : الفاصل .

(٢٤) البيان والتبين ١/١٠٧ .

(٢٥) البيان والتبين ١/١٠٩ .

ولذلك قال معاوية لعمرو بن العاص: «ان أهل العراق قد قرنوا بك رجلا طويل اللسان ، قصير الرأي ، فأجد الحز ، وطبق المفصل ، واياك ان تلقاه برأيك كله» (٢٦) .

وقال الاصمعي - ٢١٦ - د : «البليغ من طبق المفصل، وأغناك عن المفسر» (٢٧) . وأوّل الجاحظ قول الاصمعي هذا بجواب جعفر بن يحيى لثمامة بن الاشرس حين سأله عن البيان قائلا : ما البيان ؟ ؟ قال : أن يكون الاسم يحيط بمعناك ويجلي عن مغزاك ، وتخرجه عن الشركة ، والاتستعين عليه بالفكرة . والذي لابد له منه ، أن يكون سليما من التكلف ، بعيدا عن الصنعة ، بريئا من التعقيد ، غنيا عن التأويل . فقال الجاحظ : وهذا تأويل قول الاصمعي : البليغ من طبق المفصل ، وأغناك عن المفسر » .

ومن هذا يتضح أن مفهوم البلاغة في العصر الجاهلي ما كان منصرفا الى مجرد الوصول والانتهاء وانصرافه الى الحذق والمهارة والاصابة والاجادة والتمكن وما اليها .

ولقد ظلت هذه المعاني بارزة فيما وصف بالبلاغة أو وصف به من أقوال .

ولم يرد لفظ البلاغة في القرآن الكريم ، ولا في الحديث النبوي الشريف مع ورود غير قليل من مشتقات المادة اللغوية : الباء واللام والغين فيهما . فقد نعت القول بالبليغ في قوله تعالى : « فأعرض عنهم ، وعظهم ، وقل لهم — في أنفسهم — قولا بليغا » [٦٣ النساء ٤] .

ولم يذكر الطبري ما قاله المفسرون الاوائل فيه (٢٨) غير أن الزمخشري

(٢٦) نفسه ١/٢٧٥ .
(٢٧) نفسه ١/١٠٦ .
(٢٨) تفسيره : ٥/٠٩٩ .

مكتبتنا العربية

قال : أي قل لهم قولا بليغا في أنفسهم ، مؤثرا في قلوبهم ، يغتمون به اغتماما ، ويستشعرون منه الخوف استشعارا (٢٩) .

فالقول البليغ : هو القول المتميز بنضجه واكتماله ونفاذه ، المؤثر في سامعه وقارئه . وقد وقفنا في التحقيق اللغوي على ما ذهب اليه الراغب الاصفهاني قبله في القول البليغ (٣٠) . ولا يخرج عن هذا المعنى لفظ البليغ الوارد في قوله صلى الله عليه وسلم : ان الله يبغض الرجل البليغ الذي يتخلل بلسانه تخلل البقرة بلسانها (٣١) فالبغض لمخيلة البليغ وزهوه وتيهه وليّ لسانه ، وليس لبلاغته ذاتها .

وقال علي بن أبي طالب — ٤٠ هـ رضي الله عنه :

« البلاغة ايضاح الملابسات ، وكشف عوار الجهالات ، بأسهل ما يكون من العبارات » (٣٢) .

ونقل الجاحظ أن معاوية بن أبي سفيان ٦٠ هـ — رضي الله عنه كان قد سأل صحار بن عياش العبدي — ٤٠ هـ — قائلا : ما هذه البلاغة التي فيكم ؟؟ قال : شيء تجيش به صدورنا ، فتقذفه على ألسنتنا . قال معاوية : ما تعدون البلاغة فيكم ؟ ؟ قال : الايجاز . قال له : وما الايجاز ؟ ؟ قال : أن تجيب فلا تبطئ . قال معاوية : أو كذلك تقـول ياصحار ؟ قال : أقلني يا أمير يا أمير المؤمنين ، الا تبطئ ولاتخطئ (٣٣) .

---

(٢٩) الكشاف : ٣٧١/١ .

(٣٠) انظره في هذا البحث : ص : ٢٦٢ .

(٣١) الامثال لابي احمد العسكري كما في الكنز ٣٢١/٢ ، سنن أبي داود ٥٩٧/٢ سنن الترمذي ١٤١/٥ ، مسند احمد ١٦٥/٢ ، ١٨٧ ، الترغيب ٣١٦/٥ ، المشكاة ٥٧٤/٢ ، الفائق ٢٣٤/٣ ، النهاية ٧٣/٢ ، مجمع الزوائد ١١٦/٨ ٢٦١/١٠ . وقد روي في قسم منها " يلعب بلسانه كما تلعب البقرة بلسانها " وفي قسم منها " الباقرة " مكان البقرة .

(٣٢) الصناعتين : ٥١ — ٥٢ .

(٣٣) البيان والتبيين : ٩٦/١ .

مكتبتنا العربية

فالبلاغة — عندهم — ليست الايجاز الذي نعهده من التعبير عن المعنى بأقل ما يمكن من الالفاظ فحسب ، وانما هي — فضلاعنه — من الاصابة ، واحكام القول مع حضور البديهة ، ألا تراه قال : ألا تبطىء ولا تخطىء ؟ وهذه الامور كلها دليل الحذق والمهارة ، والتمكن من الاصابة واحكام القول .

ومثل قول صحار ، أو قريب منه في قصر البلاغة على الايجاز ، قول عمرو بن العاص — ٤٣ هـ حين سأله معاوية قائلا : من « أبلغ الناس ؟ ؟ قال : من اقتصر على الايجاز وتنكب الفضول » (٣٤) .

وقال الحسن بن علي — ٥٠ هـ : « البلاغة تقريب بعيد الحكمة بأسهل العبارة » (٣٥) ومثله قول محمد بن الحنفية — ٨١ هـ : البلاغة قول تضطر العقول الى فهمه بأسهل العبارة » (٣٦) .

وقال عبد الله بن عتبة — ٩٨ هـ « : البلاغة دنو المأخذ ، وقرع الحجة وقليل من كثير (٣٧) .

وقال عمر بن عبد العزيز — ١٠١ هـ : البليغ من اذا وجد كثيراً ملأه ، واذا وجد قليلا كفاه » (٣٨) . فعبر بهذا عن الحذق والتمكن .

ونقل ابو هلال العسكري قول محمد بن علي رضي الله عنهما : « البلاغة تفسير عسير الحكمة بأقرب الالفاظ » (٣٩) ونقل عنه — أيضا — قوله : « البلاغة قول مفقه في لطف » ، وفسره قائلا : فالمفقه : المفهم ، واللطيف من الكلام ماتعطف به القلوب النافرة ، ويؤنس القلوب المستوحشة ، وتلين به العريكة الابية

(٣٤) مجالس ثعلب : ١٨٧/١ .
(٣٥) الصناعتين : ٥٢ .
(٣٦) نفسه : ١٢ .
(٣٧) نفسه : ١٦ ، الرسالة العذراء : ٤٦ .
(٣٨) الرسالة ، الموضع نفسه ١
(٣٩) الصناعتين : ٥٢ . وأظنه أراد محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب — ١١٤ هـ .

مكتبتنا العربية

المستعصية وتبلغ به الحاجة . وتقام به الحجة » ، فتخلص نفسك من العيب ، وتلزم صاحبك الذنب من غير أن تهيجه وتقلقه ، وتستدعي غضبه ، وتستثير حفيظته » (٤٠) .

وقيل للامام ابراهيم بن محمد — ١٣٢ هـ : « ما البلاغة ؟ ؟ قال : الجزالة والاطالة » (٤١) . وعقب ابن رشيق القيرواني على هذا بقوله : « وهذا مذهب جماعة من الناس جلة ، وبه كان ابن العميد يقول في منثوره » (٤٢) .

وروي عنه الجاحظ قوله : « يكفي من حظ البلاغة أن لايؤتى السامع من سوء افهام الناطق ، ولايؤتى الناطق ، من سوء فهم السامع » (٤٣) . وعقب الجاحظ على هذا بقوله : « اما أنا فاستحسن هذا القول جداً » (٤٤) .

وقال عبد الحميد الكاتب —١٣٢ هـ وقد سئل عن البلاغة : « هي ما رضيته الخاصة ، وفهمته العامة » (٤٥) . وقال : « لو كان الوحي ينزل على أحد بعد الانبياء فعلى بلغاء الكتاب » (٤٦). وقال «خير الكلام ماكان لفظه فحلا ، ومعناه بكرا » (٤٧) . وقال : « البلاغة تقرير المعنى في الافهام ، من اقرب وجوه الكلام » (٤٨) .

وقال خالد بن صفوان — ١٣٥ هـ — : « ليس البلاغة بخفة اللسان ، ولا

(٤٠) نفسه : ٥١ .
(٤١) العمدة : ١/٢٤٥ .
(٤٢) الموضع نفسه .
(٤٣) البيان والتبين : ١/٨٧ .
(٤٤) الموضع نفسه .
(٤٥) الاعجاز والايجاز : ١١١ .
(٤٦) الموضع نفسه .
(٤٧) الموضع نفسه .
(٤٨) زهر الآداب : ١/١٢٧ .

مكتبتنا العربية

بكثرة الهذيان ، ولكنها اصابة المعنى ، والقرع بالحجة » (٤٩) . وقال ايضا : « لا تكون بليغا حتى تكلم أمتك السوداء في الليلة الظلماء في الحاجة المهمة بما تتكلم به في نادي قومك . وانما اللسان عضو ، اذا مرنته مرن ، واذا تركته كان كاليد تخشنها بالممارسة والبدن الذي تقويه برفع الحجر وما اشبهه ، والرجل اذا تعودت المشي مشت (٥٠) وقال كذلك : « أبلغ الكلام ما لايحتاج الى كلام ، وأحسنه ما لم يكن بالبدوي المغرب ولا القروي المخدج ، الذي صحت مبانيه ، وحسنت معانيه ، ودار على ألسن القائلين ، وخف على آذان السامعين ، ويزداد حسنا على مر السنين ، بتجلية الرواة ، وتنقية السراة .

والكاتب المستحق اسم الكتابة ، والبليغ المحكوم له بالبلاغة ، من اذا حاول صنعة كتاب ، سالت على قلمه عيون الكلام من ينابيعها ، وظهرت من معادنها ، وبدرت من مواطنها ، عن غير استكراه ، ولا اغتصاب » (٥١)

وقال بشر بن خالد : « البلاغة التقريب من المعنى البعيد ، والتباعد عن خسيس الكلام ، والدلالة بالقليل على الكثير » (٥٢) .

وقل لابن المقفع — ١٤٢ هـ : « ما البلاغة ؟ قال : قلة الحصر ، والجرأة على البشر . قيل له : فما العي ؟ قال : الاطراق من غير فكرة ، والتنحنح من غير علة » (٥٣) .

ونقل الجاحظ عن اسحاق بن حسان بن قوهي قوله : «لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع احد قط . سئل ما البلاغة ؟ ؟ قال : البلاغة اسم جامع لمعان

(٤٩) الرسالة العذراء : ٤٦ ، وفي العقد : ٢٦١/٢ " قيل لخالد بن صفوان ما البلاغة ؟قال: اصابة المعنى والقصد للحجة » .
(٥٠) العقد : ٢٦٩/٢ — ٢٧٠ .
(٥١) الرسالة العذراء : ٣٥ ٣٦ .
(٥٢) نفسه : ٤٦ .
(٥٣) العقد : ١٨٩/٤ — ١٩٠ .

مكتبتنا العربية

ما يكون في الاشارة ، ومنها ما يكون في الاحتجاج ، ومنها ما يكون جوابا ، ومنها ما يكون ابتداء ، ومنها ما يكون شعرا ، ومنها ما يكون سجعا وخطبا . ومنها ما يكون رسائل . فعامة ما يكون من هذه الابواب الوحي فيها والاشارة ، والايجاز هو البلاغة . فأما الخطب بين السماطين ، وفي اصلاح ذات البين ، فالاكثار في غير خطل ، والاطالة في غير املال .

وليكن صدر كلامك دليلا على حاجتك ، كما ان خير أبيات الشعر البيت الذي اذا سمعت صدره ، عرفت قافيته .

كأنه يقول : فرق بين صدر خطبة النكاح ، وبين صدر خطبة العيد ، وخطبة الصلح ، وخطبة التواهب ، حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه — فانه لاخير في كلام لايدل على معناك ، ويشير الى مغزاك ، والى العمود الذي قصدت ، والغرض الذي نزعت .

قال : فقيل له : فان ملّ السامع الاطالة التي ذكرت أنها حق ذلك الموقف ؟ قال : اذا أعطيت كل مقام حقه ، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام وأرضيت من يعرف حقوق الكلام ، فـلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو ، فانه لا يرضيهما شيئ ، وأما الجاهـل فلست منه وليس منك ، ورضا الناس شيء لاينال » (٥٤) .

فابن المقفع يرى البلاغة الاجادة المتمثلة بمراعاة ما يقتضيه الحال ويتطلبه ، في السكوت والاستماع ، والابتداء والجواب ، والايجاز والاطالة ، وغير ذلك مما ذكره . وقد نص صراحة على اعطاء كل مقام حقه ومراعاة ما يجب من سياسة ذلك المقام ، فالبلاغيون المتأخرون لم يأتوا باكثر من صياغة هذا الذي ذكره أو اشار اليه في بلاغة الكلام خاصة .

(٥٤) البيان والتبيين : ١/١١٥ — ١١٦ .

مكتبتنا العربية

ومثل هذا أو قريب منه ما ذهب اليه عمرو بن عبيد — ١٤٤ هـ — وان نزع فيه منزعا آخر — حين سأله حفص بن سالم قائلا : ما البلاغة ؟ ؟ فقال : « ما بلغ بك الجنة ، وعدل بك عن النار ، وما ابصرك مواقع رشدك ، وعواقب غيك . قال : ليس هذا أريد . قال : من لم يحسن أن يسكت لم يحسن أن يستمع ، ومن لم يحسن الاستماع ، لم يحسن القول .

قال : ليس هذا أريد . قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « انا معشر الانبياء بكاء » أي قليلو الكلام . ومنه قيل: رجل بكيء . وكانوا يكرهون أن يزيد منطق الرجل على عقله .

قال : ليس هذا أريد . قال : كانوا يخافون من فتنة القول ، ومن سقطات الكلام ، ما لايخافون من فتنة السكوت ، ومن سقطات الصمت .

قال : ليس هذا أريد . فقال له : فكأنك انما تريد تخير اللفظ ، في حسن الافهام ؟ قال : نعم .

قال : انك أوتيت تقرير حجة الله في عقول المكلفين ، وتخفيف المؤونة على المستمعين ، وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين ، بالالفاظ المستحسنة في الآذان ، المقبوله عند الاذهان ، رغبة في سرعة استجابتهم ، ونفي الشواغل عن قلوبهم ، بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة ، كنت قد أوتيت فصل الخطاب واستوجبت على الله جزيل الثواب » (٥٥) فبلاغة القول عنده تخير اللفظ في حسن الافهام ، وفي ايضاحه لهذا القول من الفاظ الحسن والتزيين ما فيه .

وقال المنصور — ١٥٨ هـ : « البلاغة والغنى اذا اجتمعا لامرئ أبطراه » (٥٦).

(٥٥) البيان والتبيين : ١/١١٤ .

(٥٦) الصناعتين : ١٦ .

مكتبتنا العربية

وقال الخليل — ١٧٠ هـ : « البلاغة كلمة تكشف عن البغية » (٥٧) . وقال ايضا : « البلاغة ما قرب طرفاه ، وبعد منتهاه » (٥٨) . وقال : « كل ما أدى الى قضاء الحاجة فهو بلاغة ، فان استطعت أن يكون لفظك لمعناك طبقا ، ولتلك الحال وفقا ، وآخر كلامك لأوله مشابها ، ومورده لمصدره موازنا ، فافعل . واحرص أن تكون لكلامك متهما وأن ظرف ، وانظمك مستويا وان لطف ، بمواتاة آلتك لك ، وتصرف ارادتك معك ، فافعل » (٥٩) . وقوله هذا خير تلخيص لما كان ذكره ابن المقفع ، ان كان الخليل وقف عليه .

وقال المفضل الضبي — ١٧٨ هـ : « قلت لاعرابي منا : ما البلاغة ؟ ؟ قال لي : الايجاز في غير عجز ، والاطناب في غير خطل ».

قال ابن الاعرابي : فقلت للمفضل : ما الايجاز عندك ؟ ؟ قال : حذف الفضول وتقريب البعيد » (٦٠) . وهذا الذي ذهب اليه المفضل شبيه بالذي ذهب اليه الخليل في قوليه الاولين . وأشبه بهما منه قول خلف الاحمر — ١٨٠هـ تقريبا : « البلاغة لمحة دالة » (٦١) .

وكتب جعفر بن يحيى بن خالد — ١٨٦ هـ الى عمرو بن مسعدة : « اذا كان الاكثار أبلغ ، كان الايجاز تقصيرا ، واذا كان الايجاز كافيا كان الاكثار عيا » (٦٢) وقيل له : « ما البلاغة ؟ ؟ قال : التقريب من المعنى البعيد ، والدلالة بالقليل على الكثير . » (٦٣) .

---

(٥٧) العمدة : ١/٢٤٢ .
(٥٨) نفسه : ١/٢٤٥ .
(٥٩) الرسالة العذراء : ٤٨ .
(٦٠) البيان والتبين : ١/٩٧ .
(٦١) العمدة : ١/٢٤٢ .
(٦٢) الموضع ذاته .
(٦٣) العقد : ٤ / ١٩٨ .

وسئل كلثوم بن عمرو العتابي — ٢٠٨ هـ : ما « البلاغة ؟ » فقال : كل من أفهمك حاجته من غير اعادة ، ولا حبسة ، ولا استعانه فهو بليغ . فان اردت اللسان الذي يروق الالسنة ، ويفوق كل خطيب فاظهار ما غمض من الحق ، وتصوير الباطل في صورة الحق » (٦٤) .

وقال الجاحظ : « والعتابي حين زعم أن كل من افهمك حاجته فهو بليغ . لم يعن أن كل من أفهمنا — معاشر المولدين والبلديين — قصده ومعناه بالكلام الملحون ، المعدول عن جهته ، المصروف عن حقه ، محكوم له بالبلاغة (٦٥) . الملحون ، المعدول عن جهته ، المصروف عن حقه ، أنه محكوم له بالبلاغة . وانما عنى العتابي افهامك العرب حاجتك على مجاري كلام العرب الفصحاء (٦٥) ».

وضرب عددا من الامثلة التي لم يفهم منها العرب الفصحاء ما أريد بها لما فيها من اللحن ولكونها معدولة عن جهتها ، مصروفة عن قصدها ، منها قوله :

« وقد روى أصحابنا أن رجلا من البلديين قال لأعرابي : كيف أهلك ؟ — قالها بكسر اللام — قال الاعرابي : صلبا ، لانه أجابه على فهمه ، ولم يعلم أنه أراد المسألة عن اهله وعياله » (٦٦) . وأضاف قائلا :

« فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل ، جعل الفصاحة . واللكنة ، والخطأ والصواب ، والاغلاق والابانة ، والملحون والمعرب ، كله سواء ، وكله بيانا ، وكيف يكون ذلك كله بيانا ، ولولا طول مخالطة السامع للعجم ، وسماعه للفاسد من الكلام لما عرفه . ونحن لم نفهم عنه الا النقص الذي فينا . وأهل هذه اللغة وأرباب هذا البيان لايستدلون على معاني هؤلاء

(٦٤) البيان والتبيين : ١/١١٣ .
(٦٥) البيان والتبيين : ١/١٦١ — ١٦٢ .
(٦٦) نفسه : ١/١٦٣ .

مكتبتنا العربية

بكلامهم كما لايعرفون رطانة الرومي والصقلبي ، وان كان هذا الاسم انما يستحقونه بأنا نفهم عنهم كثيرا من حوائجهم فنحن قد نفهم بحمحمة الفرس كثيرا من حاجاته ، ونفهم بضغاء السنور كثيرا من ارادته . وكذلك الكلب والحمار والصبي الرضيع . (٦٧) .

وأخذ ابو هلال العسكري كل هذا الذي ذهب اليه الجاحظ في ايضاح قول العتابي بايجاز من غير ما اشارة اليه (٦٨) .

وعقب الجاحظ على قول الشاعر :

ألارب خصم ذي فنون علوته وان كان ألوى يشبه الحق باطله

بقوله : فهذا هو معنى قول العتابي : « البلاغة اظهار ما غمض من الحق وتصوير الباطل في صورة الحق » (٦٩) . وروي ان العتابي قال : « البلاغة مد الكلام بمعانيه اذا قصر ، وحسن التألف اذا طال » (٧٠) .

وجاء بصحيفة بشر بن المعتمر — ٢١٠ هـ المشهورة ، ومنها قوله :

« . . . أن يكون لفظك رشيقا عذبا ، وفخما سهلا ، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا ، وقريبا معروفا ، اما عند الخاصة ، ان كنت للخاصة قصدت ، واما عند العامة ، ان كنت للعامة ، أردت .

والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة ، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة . وانما مدار الشرف على الصواب ، واحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال .

---

(٦٧) نفسه : ١/١٦٢ .

(٦٨) الصناعتين : ١٠ — ١١ .

(٦٩) البيان والتبيين : — ١/٢٢٠ .

٧٠) زهر الاداب ١/١٢٧ .

مكتبتنا العربية

فان امكنك أن تبلغ من بيان لسانك ، وبلاغة قلمك ، ولطف مداخلك ، واقتدارك على نفسك ، الى أن تفهم العامة معاني الخاصة ، وتكسوها الالفاظ الواسطة ، التي لاتلطف عن الدهماء ، ولا تجفو عن الاكفاء فأنت البليغ التام » (٧١) .

ونقل عن سهل بن هارون — ٢١٥ هـ قوله :

« اللسان البليغ والشعرالجيد لا يكادان يجتمعان في واحد ، واعسر من ذلك ان تجتمع بلاغة الشعر وبلاغة القلم » (٧٢) .

كما نقل عنه قوله : « بلاغة اللسان رفق ، والعي خرق » (٧٣) .

وقال ابن الاعرابي — ٢٣١ هـ : « البلاغة التقرب من البغية ، ودلالة قليل على كثير » (٧٤) .

ولم يكتف الجاحظ — في مفهوم البلاغة بما نقله عن العرب مع كثرة ما نقله عنهم ، فجاء بأقوال غيرهم من الامم والاقوام ، فقال :

« . . قيل للفارسي : ما البلاغة ؟ قال : معرفة الفصل من الوصل .

وقيل لليوناني : ما البلاغة ؟ قال : حسن الاقتضاب عند البداهة ، والغزارة يوم الاطالة .

وقيل للهندي : ما البلاغة ؟ قال : وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة ، وحسن الاشارة .

وقال بعض اهل الهند : جماع البلاغة البصر بالحجة ، والمعرفة بمواضع الفرصة .

(٧١) البيان والتبيين : — ١٣٦/١ .
(٧٢) نفسه : — ٢٤٣/١ .
(٧٣) نفسه : — ٤٣/٢ .
(٧٤) العمدة : ٢٤٦/١ .

ثم قال : ومن البصر بالحجة ، والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الافصاح الى الكناية ، اذا كان الافصاح أوعر طريقة . وربما كان الاضراب عنها صفحا أبلغ في الدرك ، وأحق بالظفر .

وقال مرة : جماع البلاغة التماس حسن المرقع ، والمعرفة بساعات القول ، وقلة الخرق بما التبس من المعاني أو غمض ، وبما شرد عليك من اللفظ أو تعذر .

ثم قال : وزين ذلك كله ، وبهاؤه ، وحلاوته وسناؤه ، أن تكون الشمائل موزونة ، والالفاظ معدلة ، واللهجة نقية ، فان جامع ذلك السن والسمت ، والجمال وطول الصمت ، فقد تم كل التمام ، وكمل كل الكمال » (٧٥) .

ونقل عن «معمر — أبي الاشعث — أنه قال لبهلة الهندي : ما البلاغة عند أهل الهند ؟ قال بهلة : عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة ، لكن لا أحسن ترجمتها لك ، لم أعالج هذه الصناعة ، فأتى في تقصي بالقيام بخصائصها وتلخيص لطائف معانيها .

قال أبو الاشعث : فلقيت بتلك الصحيفة الترجمة ، فاذا فيها :

أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة . وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ، ساكن الجوارح ، قليل اللحظ ، متخير اللفظ ، لا يكلم سيد الامة بكلام الامة ، ولا الملوك بكلام السوقة . ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة. ولا يدقق المعاني كل التدقيق ، ولا ينقح الالفاظ كل التنقيح ، ولا يصفيها كل التصفية ، ولا يهذبها غاية التهذيب . ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيما ، أو فيلسوفا عليما ، ومن قد تعود حذف فضول الكلام ، واسقاط مشتركات

(٧٥) البيان والتبيين : — ١/٨٨ .

الالفاظ ، وقد نظر في صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة ، لا على جهة الاعتراض والتصفح ، وعلى وجه الاستطراف والتظرف .

قال: ومن علم حق المعنى ، أن يكون الاسم له طبقا ، وتلك الحال له وفقا ، ويكون الاسم لا فاضلا ولا مفضولا ، ولا مقصراً ولا مشتركا ولا مضمنا ويكون — مع ذلك — ذاكرا لما عقد عليه أول كلامه ، ويكون تصفحه لمصادره في وزن تصفحه لموارده ، ويكون لفظه موفقا ، ولحول تلك المقامات معاودا . ومدار الامر على الافهام كل قوم بمقدار طاقتهم ، والحمل عليهم على اقدار منازلهم . وأن تواتيه الآته ، وتتصرف معه أداته .

ويكون في التهمة لنفسه معتدلا ، وفي حسن الظن بها مقتصدا ، فانه ان تجاوز مقدار الحق في التهمة لنفسه ظلمها ، فأودعها ذلة المظلومين ، وان تجاوز الحق في مقدار حسن الظن بها آمنها ، فأودعها تهاون الآمنين . ولكل ذلك مقدار من الشغل ، ولكل شغل مقدار من الوهن ، ولكل وهن مقدار من الجهل (٧٦) .

ونقل ايضا أنه قيل لرجل من الحكماء : ما جماع البلاغة ؟ ؟ قال : معرفة السليم من المعتل ، وفصل ما بين المضمن والمطلق ، وفرق بين المشترك والمفرد وما يتحمل التأويل من المنصوص المقيد (٧٧) .

غير أن الجاحظ الذي وقف على هذه الاقوال الكثيرة التي نقلها كان قد اعرب عن ايثارة لقول لم يسم قائله ، فقال :

(٧٦) البيان والتبيين : — ١/٩٢ — ٩٣ .

(٧٧) البيان والتبيين : — ٢/١٠٤ .

مكتبتنا العربية

وقال بعضهم — وهـو من أحسن ما اجتبيناه ودونّاه — لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة ، حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه ، فلا يكون لفظه الى سمعك ، اسبق من معناه الى قلبك (٧٨) .

والجاحظ صيرفي الكلام ناقده ، لم يكن ليختار هذا القول ويؤثره — وان لم يوقف الحسن عليه وحده — لولا ما رآه فيه من تجسيد لميزات الكلام البليغ . فاختصاص القلب فيه مقصود ، غير عفوي ، أريد به ابراز حلاوة الكلام واستباق اللفظ والمعنى ووصولهما سويا — مع حرص كل منهما على الوصول قبل الاخر — ايماءة ذكـية للموازنة الدقيقة بينهما في الجودة والنفاذ والسرعة فالاسماع ، والافئدة لا تستقبل بسرعة الا ما جاد وراق وحسن ، وهل البلاغة غير هـذه الجودة والحسن ، والحذق في اختيار الكلام وصياغته ؟! أوليس الجاحظ هو القائل في الشعر والموازنة بين اللفظ والمعنى :

« والمعاني مطروحة في الطريق ، يعرفها العجمي والعربي ، والبدوي ، والقروي والمدني وانما الشأن في اقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع ، وجودة السبك ، فانما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير» وفي رواية (صياغة) مكان (صناعة) وهي أدل على الحذق والمهارة من الصناعة وأولى بالسياق الذي وردت فيه .(٧٩) .

والجاحظ هو الذي وصف بلاغة ثمامة بن أشرس التي اعجبته أيما اعجاب بقول ثمامة نفسه في جعفر بن يحيى . فقال :

---

(٧٨) نفسه : — ١/١١٥ .

(٧٩) الحيوان : — ٣/١٣١ — ١٣٢ .

وقال ثمامة بن أشرس : كان جعفر بن يحيى أنطق الناس ، وقد جمع الهدوء والتمهل ، والجزالة والحلاوة . وافهاما يغنيه عن الاعادة . ولو كان في الارض ، ناطق يستغنى بمنطقه عن الاشارة ، لاستغنى جعفر عن الاشارة ، كما استغنى عن الاعادة .

وقال مرة : «ارأيت احدا كان لايتحبس ، ولايتوقف ، ولا يتلجلج ، ولايتنحنح ولا يرتقب لفظا قد استدعاه من بعد ، ولا يلتمس التخلص الى معنى قد تعصى عليه طلبه ، اشد اقتدارا ، ولا أقل تكلفا من جعفر بن يحيى» (٨٠).

فعقب الجاحظ قائلا : وهذه الصفات التي ذكرها ثمامة بن أشرس فوصف بها جعفر بن يحيى ، كان ثمامة بن أشرس قد انتظمها لنفسه ، واستولى عليها دون جميع أهل عصره . انه ما كان في زمانه قروي ، ولا بدوي كان بلغ من حسن الافهام ، مع قلة عدد الحروف ، ولا من سهولة المخرج ، مع السلامة من التكلف ، ما كان بلغه .

وكان لفظه في وزن معناه ، ومعناه طبق لفظه ، ولم يكن لفظه الى سمعك بأسرع من معناه الى قلبك » (٨١) فاختتم تعقيبه بما كان آثره .

وهو القائل « : أما أنا فلم أر قط أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب فانهم ، قد التمسوا من الالفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ، ولا ساقطا سوقيا » . . (٨٢) .

وفي فصل من صدر رسالته في (البلاغة والايجاز) جاء ما نصه :

« والبلاغة اصابة المعنى ، والقصد الى الحجة مع الايجاز ومعرفة الوصل من الوصل » (٨٣) .

---

(٨٠) البيان والتبيين : — ١/١٠٥ — ١٠٦ .

(٨١) نفسه : ١ / ١١١ .

(٨٢) البيان والتبيين : — ١/١٣٧ .

(٨٣) البلاغة والايجاز — في مجلة البلاغ — ٢٣ .

مكتبتنا العربية

وأضاف فيها أن حسن البيان محمود ، وحسن الصمت حكم ، وربما كان الايجاز محمودا والاكثار مذموما . وربما رأيت الاكثار احمد من الايجاز . و لكل مذهب ووجه عند العاقل، ولكل مكان مقال ، ولكل كلام جواب . مـع أن الايجاز أسهل مراما ، وأيسر مطلبا من الاطناب . ومن قدر على الكثير ، كان على القليل أقدر ، والتقليل للتخفيف ، والتطويل للتعريف ، والتكرار للتوكيد والاكثار للتشديد . . .

وأما المذموم من المقال فما دعا الى الملال ، وجاوز المقدار ، واشتمل على الاكثار وخرج عن مجرى العادة .

وكل شيء أفرط في طبعه ، وتجاوز مقدار وسعه ، عاد الى ضد طباعه فيتحول البارد حارا ، ويصير النافع ضارا ، كالصندل البارد ان أفرط في حكه عاد حارا مؤذيا ، كالثلج يطفىء قليله الحرارة ، وكثيره يحرقها . وكذلك الترد لما أفرط قبحه ، وتناهت سماجته استملح واستظرف . والى هذا ذهب من عد الاكثار عيا والايجاز بلاغة » . (٨٤) .

ومهما يكن من شيء أن اقول الذي آثره ابن المدبر والجرجاني بعد ذلك كما سنقف عليه عندهما (٨٥) .

ولقد سئل الكندي — ٢٥٨ هـ عن البلاغة فقال : ركنها اللفظ وهو على ثلاثة أنواع : فنوع لاتعرفه العامة ولاتتكلم به ، ونوع تعرفه وتتكلم به ، ونوع تعرفه ولاتتكلم به وهو احمدها (٨٦) .

وعقب ابن قتيبة — ٢٧٦ هـ على ما نقله من قول ابرويز لكاتبه : « واجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول » بقوله : « يريد الايجاز . وهذا ليس

(٨٤) نفسه — ٢٤ .
(٨٥) انظره في هذا البحث : ص ٢٧ ، ٤٢ .
(٨٦) العمدة : — ٢٤٧/١ .

مكتبتنا العربية

بمحمود في كل موضع ، ولابمختار في كل كتاب . بل لكل مقام مقال . ولو كان الايجاز محمود في كل الاحوال لجرده الله تعالى في القرآن . ولم يفعل الله ذلك ولكنه أطال تارة للتوكيد ، وحذف تارة للايجاز ، وكرر تارة للافهام . . » (٨٧) .

ونقل ابن المدبر — ٢٧٩ هـ قول « أنوشروان لبزر جمهر : متى يكون الصبي بليغا ؟ ؟ فقال : اذا وصف بليغا » (٨٨) .

وكتب رسالة في صفة الكتابة تشبه الى حد ما صحيفة بشر بن المعتمر أودعها كثيرا مما وقف عليه من أقوال في الفصاحة والبلاغة ، وصنعة الكتابة ومتطلباتها ، قال في مقدمتها : «. . سألتني أن أقف بك على وزن عذوبة اللفظ وحلاوته ، وحدود فخامة المعنى وجزالته ، ورشاقة نظم الكتاب ومشكلة سرده ، وحسن افتتاحه وختمه ، وانتهاء فصوله ، واعتدال وصوله ، من الزلل وبعدها عن الخطل ، ومتى يكون الكاتب مستحقا اسم الكتابة ، والبليغ مسلما له معاني البلاغة في اشارته واستعارته . . » (٨٩) .

وانتهى في البلاغة الى ما اختاره الجاحظ وآثره فيها من اقوال . فقال : « . . ولكن سياسته « الكلام » — صعبة ، وتأليفه شديد الا على جهابذته وفرسانه وامراء الكلام ، يصرفونه كيف شاؤوا . ولا يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه ، لايكون اللفظ اسبق الى الاسماع من معناه الى القلوب » (٩٠) .

وقال أبو العيناء — ٢٨٢ هـ في البليغ : « من اجتزأ بالقليل عن الكثير وقرب البعيد اذا شاء ، وبعد القريب ،واخفى الظاهر ، واظهر الخفي »(٩١).

(٨٧) أدب الكاتب : — ١٥ — ١٦ .
(٨٨ - ٨٩) الرسالة العذراء ٤٦ .
(٩٠) ٣٩ .
(٩١) العمدة : — ٢٤٦/١ .

مكتبتنا العربية

وقال المبرد — ٢٨٦ هـ : « ان من حق البلاغة احاطة القول بالمعنى واختيار الكلام ، وحسن النظـم ، حتى تكون الكلمة مقاربة اختها ، ومعاضدة شكلها ، وأن تقرب البعيد ، وتحذف منها الفضول . . .

فان استوى هـذا في الكلام المنثور ، والكلام المرصوف المسمى شعرا فلم يفضل احد القسمين صاحبه ، فصاحب الكلام المرصوف أحمد ، لانه أتى بمثل ما أتى به صاحبه ، وزاد وزنا وقافية ، والوزن يحمل على الضرورة ، والقافية تضطر الى الحيلة .

وبقيت بينهما واحدة ، ليست مما توجد بعد استماع الكلام منهما ، ولكن يرجع اليهما عند قولهما ، فينظر أيهما أشد على الكلام اقتدارا واكثر تسمحا ، وأقل معاناة ، وأبطأ معاسرة ، فيعلم أنه المقدم » (٩٢) .

ووازن بين قوله صلى الله عليه وسلم : « وكفى بالسلامة داء » ومائله من أقوال شعرية ونثرية وقال : «فانظر الى هذا الكلام الذي لا زيادة فيه ولا نقصان ، لايطول المعنى ولايقصر عنه ، وانظر الى فخامته وجزالته يقول : كفى بالسـلامة داء . فأي كـلام أوعظ ، أو زجر في القلب أوقـر ؟ ان هذا الكلام لبجل عن أن يبلغه وصف ، أو يحيط بكنهه قول » (٩٣)

وقال ابن المعتز — ٢٩٦ هـ : « البلاغة بلوغ المعنى ، ولما يطل سفر الكلام » (٩٤) .

وغير خاف أن هذه الاقوال وغيرها كانت قد أوضحت مفهوم البلاغة ايضاحا تاما وان لم تعن بصياغة حد جامع مانع لها .

---

(٩٢) البلاغة : — ٥٩ — ٦٠ .

(٩٣) نفسه : — ٦٦ .

(٩٤) العمدة : — ٢٤٦/١ ، التمثيل والمحاضرة — ١٥٨ وفيه : أن تبلغ المعنى ولم يطل سفر الكلام.

مكتبتنا العربية

والغريب أن يضيف اسحاق بن وهب — ٣٣٧ هـ الى قول المبرد (فصاحة اللسان) ليجعل منه حدا للبلاغـــة ، وكأن كل من سبقه لم يفطن اليه فيقول « وقد ذكر الناس البلاغة ، ووصفوها بأوصاف لم تشتمـــل على حدها ، وذكر الجاحظ كثيرا مما وصفت به ، وكل وصف منها يقصر عن الاحاطة بحدها . وحدها عندنا : القول المحيط بالمعنى المقصود ، مع اختيار الكلام ، وحسن النظام ، وفصاحة اللسان .

وانما اضيف الى الاحاطة بالمعنى اختيار الكلام ، لان العامي قد يحيط قوله بمعناه الذي يريد ، الا أنه بكلام مرذول من كلام امثاله ، فلا يكون موصوفا بالبلاغة .

وزدنا فصاحة اللسان لان الاعجمي واللحان قد يبلغا مرادهما بقولهما فلا يكونان موصوفين بالبلاغة .

وزدنا حسن النظام لانه قد يتكلم الفصيح بالكلام الحسن ، الآتي على المعنى ولا يحسن ترتيب الفاظه ، وتصير كل واحدة مع ما يشاكلها ، فلا يقع ذلك موقعه » (٩٥) .

مع أن المبرد قبله بنصف قرن او يزيد كان قد قال : ان من حق البلاغة احاطة القول بالمعنى ، واختيار الكلام ، وحسن النظم . فليس له فيه غير فصاحة اللسان ، التي هي من قبيل تحصيل الحاصل ، فما ذهب أي من المتحدثين عن البلاغة الى أن غير الفصيح يمكن ان يكون بليغا ، وقد نبه الى هذا الجاحظ في ايضاحه لما عناه العتابي بقوله : كل من أفهمك حاجته فهو بليغ (٩٦) .

---

(٩٥) البرهان — ١٦٣ .

(٩٦) انظر في هذا البحث — ١٩ — ٢٠ .

مكتبتنا العربية

ومهما يكن من شيء فان قوله هذا انما يبرز لنا عناية قسم من البلغاء والبلاغيين بالحدود والتعريفات في وقت مبكر خلافا لما كنا نعهده .

وقال الرماني — ٣٨٦ هـ :

« . . وليست البلاغة افهام المعنى لانه قد يفهم المعنى متكلمان احدهما بليغ والآخر عيي ، ولا البلاغة ايضا بتحقيق اللفظ على المعنى ، لانه قد يحقق اللفظ على المعنى وهو غث مستكره ، ونافر متكلف .

وانما البلاغة ايصال المعنى الى القلب في أحسن صورة من اللفظ . فأعلاها طبقة — في الحسن — بلاغة القرآن ، وأعلى طبقات البلاغة للقرآن خاصة وأعلى طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم كاعجاز الشعر المفحم ، فهذا معجز للمفحم خاصة ، كما ان ذلك معجز للكافة » (٩٧) .

وقال الخطابي — ٣٨٨ هـ :

« . . فمنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ، ومنها الجائز الطلق الرسل . وهذه اقسام الكلام المحمود ، دون الهجين المذموم . . . واعلم ان القرآن انما صار معجزا لانه جاء بأفصح الالفاظ في احسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعاني . . . .

ثم اعلم ان عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات ، هو وضع كل نوع من الالفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الاخص الاشكل بـه . . .

ولم نقتصر فيما اعتمدنا من البلاغة لاعجاز القرآن ، على مفرد الالفاظ التي منها يتركب الكلام ، دون ما يتغير منه من وداثعه التي هي معانيه ، وملابسه التي هي نظوم تأليفه . . » (٩٨) .

(٩٧) النكت : — ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن — ٦٩ .

(٩٨) بيان اعجاز القرآن : — ضمن الرسائل ذاتها — ٢٣ — ٢٢ .

وقال ابو هلال العسكري — ٣٩٥ هـ « البلاغة من قولهم : بلغت الغاية اذا انتهيت اليها ، وبلغتها غيرى. ومبلغ الشيء : منتهاه . والمبالغة في الشيء الانتهاء الى غايته .

فسميت البلاغة بلاغة ، لانها تنهي المعنى الى قلب السامع فيفهمه . وسميت البلغة بلغة لانك تتبلغ بها ، فتنتهي بك الى مافوقها ، وهي البلاغ ايضا . ويقال الدنيا بلاغ : لانها تؤديك الى الآخرة . والبلاغ ايضا : التبليغ ، في قول الله عز وجل : « هـذا بلاغ للناس » أى تبليغ ويقال : بلغ الرجل بلاغة ، اذا صار بليغا ، كما يقال : نبل نبالة ، اذا صار نبيلا . وكلام بليغ وبلغ — بالفتح — كما يقال : وجيز ووجز ، ورجل بلغ — بالكسر — يبلغ مايريد ، وفي مثل لهم احمق بلغ » . ويقال : أبلغت في الكلام اذا أتيت بالبلاغة فيه . كما تقول : أبرحت اذا اتيت بالبرحاء ، وهو الامر الجسيم .

والبلاغة من صفة الكلام لا من صفة المتكلم . فلهذا لايجوز أن يسمى الله جل وعز بأنه بليغ ، اذ لايجوز أن يوصف بصفة كان موضوعها الكلام . وتسميتنا المتكلم بأنه بليغ توسع . وحقيقته أن كلامه بليغ ، كما تقول : فلان رجل محكم ، وتعني أن افعاله محكمة . قال الله تعالى : « حكمة بالغة » فجعل البلاغة من صفة الحكمة ، ، ولم يجعلها من صفة الحكيم ، الاأن كثرة الاستعمال ، جعلت تسمية المتكلم بانه بليغ كالحقيقة ، كما انها جعلت تسمية المزادة راوية كالحقيقة ، وكان الراوية حامل المزادة ، وهو البعير وما يجري مجراه .

واذا كان الامر على هذا فالفصاحة والبلاغة ترجعان الى معنى واحد ، وان اختلف أصلاهما ، لان كل واحد منهما انما هو الابانة عن المعنى والاظهار له . » .

وقد اضطرب ابو هلال أيما اضطراب في التمييز بين البلاغة والفصاحة أو مقارنتهما ببعضهما فهو بعد أن ارجعهما الى معنى واحد مع اختلاف أصليهما اشار الى اختلافهما فقال : « فعلى هذا تكون الفصاحة والبلاغة مختلفتين ، وذلك أن الفصاحة تمام آلة البيان ، فهي مقصورة على اللفظ ، لان الآلة تتعلق باللفظ دون المعنى ، والبلاغة انما هي انهاء المعنى الى القلب فكأنها مقصورة على المعنى .

ومن الدليل ان الفصاحة تتضمن اللفظ ، والبلاغة تتناول المعنى ، أن البيغاء يسمى فصيحا ولا يسمى بليغا ، اذ هو مقيم الحروف ، وليس له قصد الى المعنى الذي يؤديه . وقد يجوز مع هذا أن يسمى الكلام الواحد فصيحا بليغا ، اذا كان واضح المعنى ، سهل اللفظ ، جيد السبك ، غير مستكره ولا فج ، ولا متكلف وخم . ولا يمنعه من أحد الاسمين شيء لما فيه من ايضاح المعنى وتقويم الحروف .

وشهدت قوما يذهبون الى ان الكلام لايسمى فصيحا ، حتى يجمع مع هذه النعوت فخامة وشدة وجزالة . . . .

وقالوا : واذا كان الكلام يجمع نعوت الجودة ، ولم يكن فيه فخامة وفضل جزالة سمي بليغا ولم يسم فصيحا (٩٩) . » وهذا الذي انتهى اليه غريب واغرب من غريب بعد الذي قاله في فصاحة البيغاء ، واختصاص الفصاحة باقامة الحروف أو حصرها بها ، وجعل الفصاحة بعد هذا أخص من البلاغة ، وأعلى منها مرتبة . وهوما لم نقف عليه عند غيره ، ولايعفيه أنه في هذا ناقل ، لكونه لم يسم هؤلاء الذين نقل عنهم ، ولم يعقب على قولهم بشيء ، غير ما مثل به من نصوص لاشك في فصاحتها وبلاغتها فقال : « وأنشدنا ابو احمد عن أبي بكر الصولي لابراهيم بن العباس :

(٩٩) الصناعتين : ٦ – ٨ .

مكتبتنا العربية

تمر الصّبا صفحا بساكنة الغضا ويصدع قلبي أن يهب هبوبها
قريبة عهد بالحبيب وانما هوى كلّ نفس حيث حلّ حبيبها

فالبيت الاول فصيح وبليغ ، والبيت الثاني بليغ وليس بفصيح . واستدلوا على صحة هذا المذهب بقول العاص بن عدي : الشجاعة قلب ركين ، والفصاحة لسان رزين . واللسان هاهنا : الكلام ، والرزين : الذي فيه فخامة وجزالة » . (١٠٠) مع ان البيت الثاني لايقل فصاحة عن البيت الاول ، ورقته لاتخرجه عن الفصاحة والا امكان كل كلام رقيق غير فصيح ، فلا أدري كيف يأتي بمثل هذا الرأي الفج ويعرضه ، ويسكت عنه ، من غير أن يعقب عليه بشيء ، مع انه خصص الفصول الثلاثة الاولى من كتابه للحديث عن البلاغة والفصاحة ، الاول : « في الابانة عن موضوع البلاغة في اللغة ، وما يجري معه من تصريف لفظها ، والقول في الفصاحة وما يتشعب منه » (١٠١) . والثاني : « في الابانة عن حد البلاغة » (١٠٢) . والثالث « وهو القول في تفسير ما جاء عن الحكمة في حدود البلاغة . (١٠٣) » فقال في الابانة عن حد البلاغة : « فنقول : البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع » ، فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك ، مع صورة مقبولة ومعرض حسن .

وانما جعلنا حسن المعرض وقبول الصورة شرطا في البلاغة ، لان الكلام اذا كانت عبارته رثة ، ومعرضه خلقا لم يسم بليغا ، وان كان مفهوم المعنى ، مكشوف المغزى » . (١٠٤) وأوضح فيه قول العتابي بمثل ما أوضحه الجاحظ من قبل ، ان لم يكن هو اياه باكثر لفظه ومعناه (١٠٥) . واحتج للحد الذي ذكره قائلا :

(١٠٠) النفس : ٩ .
(١٠١) ، (١٠٢) ، (١٠٣) : الصناعتين : ٦ ، ١٠ ، ١٤ .
(١٠٤) نفسه : ١٠ . (١٠٥) نفسه : ١٠ — ١١ .

مكتبتنا العربية

« ومما يؤيد ما قلنا من أن البلاغة انما هي ايضاح المعنى وتحسين اللفظ قول بعض الحكماء : البلاغة تصحيح الاقسام ، واختيار الكلام الى غير ذلك مما سنذكره ونفسره في هذا الباب ان شاء الله .

وقال محمد بن الحنفية رضي الله عنه : البلاغة قول تضطر العقول الى فهمه باسهل العبارة » فقوله : تضطر العقول الى فهمه عبارة عن ايضاح المعنى وقوله باسهل العبارة تنبيه على تسهيل اللفظ وترك تنقيحه » . (١٠٦)

وأكد في الفصل الثالث ما ذكره من حدها في الفصل الثاني وأورد أقوالا غير قليلة فيها وتولى شرحها والتمثيل لها مع ما في طائفة منها من اطناب فجاء هذا الفصل أطول الفصول الثلاثة .

ولعل من الانصاف أن نشير الى أنه لم يقصر الفصاحة أو البلاغة على الجزالة بل صرح في هذا الفصل ، بما كنا ننتظر أن يصرح به هناك اثر النزل الذي ساقه . فقال هنا : « وابلغ من هذه المنزلة ، أن يكون في قوة صائغ الكلام ، أن يأتي مرة بالجزل وأخرى بالسهل ، فيلين اذا شاء ، ويشتد اذا أراد ، ومن هـذا الوجه فضلوا جريرا على الفرزدق ، وأبا نواس على على مسلم » (١٠٧)

كما انه أورد أقوالا لم أقف عليها عند من سبقه ، منها ما قد عزاه لقائله ، ومنها ما لم يعزه لقائل بعينه ، من هذه قوله :

« قال بعض الحكماء : البلاغة قول يسير ، يشتمل على معنى خطير . وهذا مثل قول الآخر : البلاغة حكمة تحت قول وجيز ، وقول الآخر: البلاغة علم كثير في قول يسير » . (١٠٨) .

---

(١٠٦) نفـه : ١٢ .
(١٠٧) الصناعتين : ٢٤ .
(١٠٨) نفـه : ٣٧ .

« وكما قال بعضهم : البلاغة صوب ، في سرعة جواب ، والعي اكثار في اهذار ، وابطاء يردفه أخطاء » (١٠٩) .

« وقال العربي : البلاغة التقرب من المعنى البعيد ، والتباعد من حشو الكلام ، وقرب المأخذ ، وايجاز في صواب ، وقصد الى الحجة ، وحسن الاستعارة . »

ومثله قول الآخر : البلاغة تقريب ما بعد من الحكمة بأيسر الخطاب ...

والرواية الصحيحة أن العربي قال : البلاغة التقرب من المعنى البعيد . ولكن رأيته في بعض أصولي كما ذكرته قبل فأوردته هاهنا وفسرته على ما رأيته في الاصل . » (١١٠) .

غير انه نقل عن جعفر بن يحيى في البلاغة قائلا :

« وقال جعفر بن يحيى : البلاغة أن يكون الاسم يحيط بمعناك ، ويجلي عن مغزاك ، وتخرجه من الشركة ، ولا تستعين عليه بطول الفكرة ، ويكون سليما من التكلف ، بعيدا من سوء الصنعة ، بريا من التعقيد ، غنيا عن التأميل » (١١١) . وتولى تفسيره مع ان الجاحظ كان قد نقل قوله هذا في معنى البيان ، وليس في معنى البلاغة ، فقال : « وقال ثمامة : قلت لجعفر بن يحيى : ما البيان ؟ ؟ قال : » (١١٢) .

ومهما يكن من شيء ، فقد بذل الرجل جهدا فيما حد به البلاغة ، وجاء به من حدودها الكثيرة المعزوة لاصحابها ، غير المعزوة ، تفسير غير قليل مما قيل فيها وأوضح المراد بها ، حتى ان من الباحثين المعاصرين ، من آثر أن يبدأ الحديث عن البلاغة بحديثه ، محقا في هذا أو غير محق فيه (١١٣) .

---

(١٠٩) نفسه : ٤٣ .

(١١٠) نفسه : ٤٧ — ٤٨ .

(١١١) الصناعتين : ٤٢ .

(١١٢) البيان والتبيين ١/١٠٦ .

(١١٣) معجم البلاغة العربية ١/٩١ .

وقال عبد الكريم النهشلي القيرواني – ٤٠٣ هـ : « وانما سميت البلاغة بلاغة لابلاغ المتكلم حاجته بحسن إفهام السامع » (١١٤) .

وعنون الثعالبي – ٤٢٩ هـ الفصل الرابع والخمسين من كتابه المبهج بعنوان : « في ذكر البلاغة والبلغاء ، ووصف الكلام البارع » (١١٥) ، وسأقتصر اولا على ايراد النصوص ، التي ذكر فيها ذكر البلاغة والبلغاء صراحة ، في هذا الفصل وغيره من فصول هـذا الكتاب ، لقولـه في مقدمته : « . . . وبعد فهذا كتاب عولت فيه على خواطري لا على دفاتري ، وعلى قولي لاعلى منقولي ، وعلى فكري لا على ذكري . وجلوته في معرض المبتدع المخترع ، لاالمبتذل المفترع . . » (١١٦) ، وألحق بها بعد ذلك ، النصوص التي وردت في كتبه الاخرى . فجاء في نصوص الفصل قوله :

« أبلغ الكلام ما حسن ايجازه ، وقل مجازه ، وكثر إعجازه ، وناسبت صدوره أعجازه . البليغ من اذا رمى هدف البلاغة أصاب ، واذا استدر سحاب الصـواب صاب .

البليغ من يبلغ الاغراض البعيدة بالالفاظ القريبة .

البليغ من يتجنب الإغراب في الإعراب ، ويترك التوعير والتقعير في الخطاب .

الفاظ البليغ حالية ، وألفاظ العيي خالية .

كلام البليغ معسول ، وكلام العيي مغسول .

البليـغ من فوائده موارد ، وشوارده ونوادره بوادر .

البليغ من يجتبي من الالفاظ أسرارها ، ويجتني من المعاني ثمارها .

---

(١١٤) المتع : ٣١١ . (١١٥) المبهج : ٤٤ . (١١٦) نفسه : ٢ .

كلام البليغ في حلة من الحلاوة ، وحلية من الطلاوة .

كلام البليغ فصوص مصفوف .

كلام البليغ فصول مدبجة ، وكلام العيي فضول مثبجة .

البليغ اذا نطق طبق المفصل ، واذا كتب نسق الدر المنضل » (١١٧)

وقال في فصل آخر منه :

« البليغ من اذا تكلم أضحك القطوب ، واذا خطب دفع الخطوب »(١١٨)

وجاء بأقوال في حديثه عن الكتاب والبلغاء في كتابه التمثيل والمحاضرة تحت عنوان « من كتاب المبهج » مع أن منها ما لم يكن — كذلك — في المبهج واكثرها لم يرد لما ذكر في المبهج بأي شكل من الاشكال . فمما وزد على نحو مغاير لما في المبهج قوله : « البليغ من يحوك الكلام على حسب الاماني ، ويخيط الالفاظ على قدود المعاني » (١١٩) .

مع انه في المبهج « الكاتب » بدلا من البليغ ، (١٢٠) ومثل ما في المبهج في النسخة « أ » من كتاب التمثيل والمحاضرة ذاته ، كما ذكر محققه الفاضل ، غير انه ثبت في المتن لفظ البليغ (١٢١) . ويكاد يكون كل ما جاء به من نصوص هذا القسم — بعد هذا النص — ليس من كتاب المبهج لعدم وجودها فيه ، ولان اكثرها جاءت معزوة لغيره خلافا لما صرح به في المبهج ، ولاختلاف النهج الذي انتهجه هنا عما انتهجه في المبهج. فقد نسب الى أبي عبد الله وزير المهدي أنه قال : « البلاغة مافهمته العامة ، ورضيته الخاصة » (١٢٢) ،

(١١٧) المبهج : ٤٤ .
(١١٨) نفسه : ٤٧ .
(١١٩) التمثيل والمحاضرة : ١٥٧ .
(١٢٠) انظر : المبهج .
(١٢١) التمثيل والمحاضرة : ١٥٧ .
(١٢٢) نفسه : ١٥٨ .

مكتبتنا العربية

وقال : قال غيره : « ابلغ الكلام ماسبق معناه لفظه » (١٢٣) . ونسب الى ابن المعتز أنه قال : « البلاغة أن تبلغ المعنى ، ولم تطل سفر الكلام » (١٢٤) .

وجاء بعبارة : « خير الكلام ما كان لفظه فحلا ، ومعناه بكرا » (١٢٥) مغفلة ، وكذلك العبارة : « البلاغة ما صعب على التعاطي ، وسهل على الفطنة » (١٢٦) .

والذي يبدو لي أن الثعالبي لم يرد بقوله « من كتاب المبهج » غير الاقوال الثلاثة الاولى التي جاءت بين قوله هذا والبيتين اللذين عزاهما الى أبي الفتح وتهيـأ للمحقق الفاضل أنهـا جميعا من كتاب المبهج (١٢٧) . ومهما يكن من شيىء فان ماقاله اكثر مما نقله ، وان لم يكن يرمي في الذي قاله الى وضع حد جامع مانع بقدر ما أراده من صياغة الافكار ، والمفاهيم التي وقف عليهـا وتمثلها من أقوال غيره ، والافتنان في صياغتها ، افتنانا يعرب عن مكانة البلاغة ونفاستها .

ولقد خصص ابن رشيق القيرواني — ٤٥٦ هـ بابا للبلاغة ، جاء فيه بكثير مما قيل فيها ، منسوبا وغير منسوب ، ومما جاء فيه قوله :

« . . وسئل بعض البلغاء : ما البلاغة ؟ فقال : قليل يفهم ، وكثير يسأم .

وقال آخر : البلاغة اجاعة اللفظ ، واشباع المعنى .

وسئل آخرفقال : معان كثيرة ، في الفاظ قليلة .

وقيل لاحدهم : ما البلاغة ؟ فقال : اصابة المعنى وحسن الايجاز.

(١٢٣) الموضع نفسه . (١٢٤) الموضع نفسه .

(١٢٥) الموضع نفسه ، مع ان الثعالبي نفسه كان قد عزاه الى عبدالحميد الكاتب في الاعجاز والايجاز : ١١١ .

(١٢٦) الموضع نفسه . (١٢٧) : نفسه ١٥٧ .

وسئل بعض الاعراب : من ابلـغ الناس ؟ فقال : اسهلهم لفظا ، وأحسنهم بديهة » (١٢٨) .

وقال : « وقيل لبعضهم : ما البلاغة ؟ فقال : ابلاغ المتكلم حاجته بحسن افهام السامع ، ولذلك سميت بلاغة » (١٢٩) .

وقال آخر : البلاغة أن تفهم المخاطب بقدرفهمه ، من غير تعب عليك .

وقال آخر : البلاغة معرفة الفصل من الوصل .

وقيل : البلاغة حسن العبارة مع صحة الدلالة .

وقيل : البلا غة أن يكون أول كلامك يدل على آخره ، وآخره يرتبط بأوله .

وقيل : البلاغة القوة على البيان ، مع حسن النظام .

. . . .

وقالوا : البلاغة ضد العي ، والعي : العجز عن البيان

. . . .

وقيل لبعض الجلة : ما البلاغة ؟ فقال : تقصير الطويل ، وتطويل التصير. — يعني بذلك القدرة على الكلام » (١٣٠) .

ونقل عن عبد الله بن محمد بن جميل المعروف بالباحث :

« البلاغة الفهم والافهام ، وكشف المعاني بالكلام ، ومعرفة الاعراب ، والاتساع في اللفظ ، والسداد في النظم ، والمعرفة بالقصد ، والبيان في الاداء ،

---

(١٢٨) العمدة : ١/٢٤٢ .

(١٢٩) نفسه : ١/٢٤٤ . وهو لعبدالكريم النهشلي . انظر : المتع له — ٣١١ ، وهذا البحث: ص ٢٩٤ .

(١٣٠) نفسه : ١/٢٤٥ .

مكتبتنا العربية

وصواب الاشارة ، وايضاح الدلالة ، والمعرفة بالقول ، والاكتفاء بالاختصار عن الاكثار ، وامضاء العزم على حكومة الاختيار .

قال : وكل هذه الابواب محتاج بعضها الى بعض ، كحاجة بعض أعضاء البدن الى بعض ، لاغنى لفضيلة أحدهما عن الآخر . فمن أحاط معرفة بهذه الخصال فقد كمل كل الكمال ، ومن شذ عنه بعضها لم يبعد عن النقص بما اجتمع فيه منها .

وقال : البلاغة تخير اللفظ في حسن الافهام . » (١٣١) .

واختتم الباب بقوله : « وقد تكرر في هذا الباب من أقاويل العلماء مالم يخف عني ولا اغفلته ، لكن اغتفرت ذلك لاختلاف العبارات .

ومدار هذا الباب كله على ان البلاغة : وضع الكلام موضعه من طول أو ايجاز مع حسن العبارة .

ومن جيد ما حفظته قول بعضهم : البلاغة شد الكلام معانيه وان قصر ، وحسن التأليف وان طال » (١٣٢) . هذا فضلا عن الاقوال الكثيرة التي جاء بها منسوبة الى اصحابها وأخذت اماكنها في هذا البحث بحسب وفياتهم ، ومنها ما أخذه عن الكتب التي سبقته وعاصرته ، ومنها ما انفرد بايرادها مع قدمها .

ولد بلغ من كثرة ما قيل في البلاغة أن الاقول في وصفها على ألسنة ذوي الصناعات المختلفة فقال الحصري — ٤٥٣ هـ تحت عنوان : « أوصاف بليغة في البلاغات على ألسنة أقوام من أهل الصناعات :

(١٣١) العمدة : ٢٤٧/١ .

(١٣٢) نفسه : ٢٥٠/١ . وقد انفرد الحصري بعزو القول الى الثعالبي . انظر : زهر الآداب ١٢٧/١ ، وهذا البحث : ص ٢٩٩ .

تجمع قوم من أهل الصناعات فوصفوا بلاغاتهم من طريق صناعاتهم وذكر ما قاله الجوهري ، والعطار ، والصائغ ، والصيرفي ، والحداد ، والنجار ، والنجاد والماتح ، والخياط ، والصباغ ، والحائك ، والبزاز ، والرائض ، والجمال والمخنث ، والخمار ، والقناعي ، والطبيب ، والكحال . ويكفي والوقوف على ما ذكر فيه لفظ البلاغة وما اشتق من مادتها اللغوية صراحة كقول الخياط : البلاغة قميص . . فجربانه (*) البيان ، وجيبه المعرفة ، وكماه الإرجازة ، ودخاريصه (*) الافهام ، ودروزه الحلاوة ولابس جسده اللفظ ، وروحه المعنى . . . . وقال الجمال : البليغ من أخذ بخطام كلامه ، فأناخه في مبرك المعنى ، ثم جعل الاختصار له عقالا ، والايجاز له مجالا ، فلم يند عن الآذان ولم يشذ عن الاذهان .....

وقال الخمار : أبلغ الكلام ما طبخته مراجل العلم ، وصفاه راووق (*) الفهم ، وضمته دنان الحكمة ، فتمشت في المفاصل عذوبته ، وفي الافكار رقته ، وفي العقول حدته . . . .

ثم قال : أجمعوا كلهم على أن أبلغ الكلام ما اذا أشرقت شمسه ، انكشف لبسه ، واذا صدقت أنواؤه اخضرت أحماؤه » (١٣٣) .

وضمن كتابه فصلا آخر بعنوان « فقر في وصف البلاغة لغير واحد »(١٣٤). ونسب فيه الى عبد الحميد بن يحيى قوله: « البلاغة تقرير المعنى في الافهام

---

* جربانه : جيبه . * دخاريصه : ما يوصل به الترسمة . * الراووق : المصفاة .

(١٣٣) زهر الآداب ١/١٢٣ - ١٢٦ .

(١٣٤) نفسه ١/١٢٦ .

مكتبتنا العربية

من اقرب وجوه الكلام » (١٣٥) وإلى العتابي انه قال : البلاغة مـد الكلام بمعانيه اذا قصر ، وحسن التأليف اذا طـال » وجاء باقوال أخـرى غير قليلة .

كما انه أورد فصلا بعنوان « من كلام اهل العصر في صفة البلاغة والبلغاء » (١٣٦) من غير ما عزو ، صدره بما ذهب اليه الثعالبي ، لا الرماني كما وهم المحقق الفاضل وهو قوله: « أبلغ الكلام ما حسن ايجازه ، وقل مجازه ، وكثر إعجازه ، وتناسبت صدوره وأعجازه » (١٣٧). ومما جاء في هذا الفصل قولهم :

« ليست البلاغة أن يطال عنان القلم أو سنانه، أو يبسط رهان القول وميدانه بل هي أن امد المراد بالفاظ اعيان، ومعان أفراد ،من حيث لاتزيد على الحاجة ولا اخلال يفضي الى الثاقة .

البلاغة ميدان لايقطع الا بسوابق الاذهان ، ولا يسلك الا ببصائر البيان .. » (١٣٨) .

ووقف ابن سنان الخفاجي على عدد من حدود البلاغة ، ومع عدم اقتناعه بصلاحية أي منها لان يكون حدا لها فانه لم يحاول وضع الحد الذي يرتضيه فقال :

«وقد حد الناس البلاغة بحدود اذا حققت كانت كالرسوم والعلائم، وليست بالحدود الصحيحة، فمن ذلك قول بعضهم : لمحة دالة . وهذا وصف من صفاتها فأما أن يكون حاصرا لها وحدا يحيط بها ، فليس ذلك بممكن ، لدخول الاشارة من غير كلام يتلفظ به تحت هذا الحد .

(١٣٥) نفـه ١/١٢٧ . (١٣٦) نفـه ١/١٢٨ .
(١٣٧) زهر الآداب : ١٢٨ ، وهو للثعالبي في المبهج : ٤٤ .
(١٣٨) الموضع نفـه .

وكذا قال آخر : البلاغة معرفة الفصل من الوصل ، لان الانسان قد يكون عارفا بالفصل والوصل ، عالما بتمييز مايختاره من تأليف غيره ، والحدود لايحسن فيها التأول واقامة المعاذير ، وغرابة الفاظ لاتدل على المقصود ، لانها مبنية على الكشف الواضح ، موضوعة للبيان الظاهر ، والغرض بها السلامة من الغامض ، فكيف يوقع من غامض بمثله .

وكذلك قول الآخر : البلاغة ان تصيب فلا تخطئ ، وتسرع فلا تبطئ ، لان هذا يصلح لكل الصنائع ، وليس بمقصور على صناعة البلاغة وحدها . ثم انما سئل عن بيان الصواب في هذه الصناعة من الخطأ ، فجعل جواب السائل نفس سؤاله وبهذا يفسد قول من ادعى أن حدها الايجاز من غير عجز ، والاطناب من غير خطل .

وقول من قال : البلاغة اختيار الكلام ، وتصحيح الاقسام ، لان هذين انما سئلا عن حد يبين الكلام المرفوض من المختار ، ومتى يقع الاطناب مرضيا محمودا فأحال على ما السؤال فيه باق ، وعدم العلم به موجود وحاصل .

وفي البلاغة أقوال كثيرة غير خارجة عن هذا النحو » (١٣٩) .

وهذا الذي ذهب اليه صحيح ، غير ان قائلي هذه الاقوال بالذات ، لم يذهب أي منهم الى أن ماقاله انما هو الحد الجامع المانع للبلاغة . مع ان غير واحد ممن سبقه كان قد نص صراحة على أن ماقاله في البلاغة انما هو حدها ، الذي أراده لها وعلل الفاظه ، ، كاسحاق بن وهب مثلا . فأقوال هؤلاء أولى بمناقشته من الاقوال التي ناقشها . ولقد تجنب أن يتولى وضع حد لها .

أما الشيخ عبد القادر الجرجاني — ٤٧١ هـ فقد أوضح ما كان آثره الجاحظ من الاقوال في البلاغة من غير ما اشارة للجاحظ فقال :

(١٣٩) سر الفصاحة : ٦٠ — ٦١ .

« . . . فان قلت : فيجب – على هذا – أن يكون التعقيد والتعمية ، وتعمد ما يكسب المعنى غموضا مشرفا له ، وزائداً في فضله ، وهذا خلاف ما عليه الناس ، ألا تراهم قالوا : خير الكلام ماكان معناه الى قلبك اسبق من لفظه الى سمعك ؟ فالجواب : اني لم ارد هذا الحد الزائد من الفكر والتعب ، وانما أردت القدر الذي يحتاج اليه في نحو قوله : . .

« فان المسك بعض دم الغزال »

فانما ارادوا بقولهم : « ماكان معناه الى قلبك اسبق من لفظه الى سمعك » أن يجتهد المتكلم في ترتيب اللفظ وتهذيبه ، وصيانته من كل ما أخل بالدلالة ، وعاق دون الابانة ، ولم يريدوا أن خير الكلام ماكان غفلا ، مثل ما يتراجعه الصبيان ، ويتكلم به العامة في السوق .

وهذا ، وليس اذا كان الكلام في غاية البيان ، وعلى ابلغ ما يكون من الوضوح أغناك ذلك عن الفكرة ، اذا كان المعنى لطيفا ، فان المعاني الشريفة اللطيفة لابد فيها من بناء ثان على أول ، ورد تال الى سابق ... » (١٤٠).

وخصص فصلا للبلاغة والفصاحة ، غير انه لم يكن فيه معنيا بالانتهاء الى وضع حد لأي منهما ، وانما كان معنيا بوضع اليد على سبب المزية ، والفضل في الكلام البليغ أو الفصيح ، فقال: « .. وفي تحقيق القول على البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة وكل ما شاكل ذلك ، مما يعبر عن فضل بعض القائلين على بعض ، من حيث نطقوا وتكلموا ، وأخبروا السامعين عن الاغراض والمقاصد ، ورامروا أن يعلموهم ما في نفوسهم ، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم .

ومن المعلوم أنه لامعنى لهذه العبارات ، وسائر مايجري مجراها ، مما يفرد فيه اللفظ بالنعت والصفة ، وينسب فيه الفضل والمزية اليه دون المعنى ،

(١٤٠) اسرار البلاغة : ١٢٧ ، ١٣٢ – ١٣٣ .

غير وصف الكلام بحسن الدلالة ، وتمامها فيما له كانت دلالة ، ثم تبرجها في صورة هي أبهى وازين ، وآنق وأعجب ، وأحق أن تستولي على هوى النفس ، وتنال الحظ الاوفر من ميل القلوب وأولى بأن تطلق لسان الحمد ، وتطيل رغم الحاسد ، ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن يؤتي المعنى من الجهة التي هي اصح لتأديته ، ويختار اللفظ الذي هو أخص به ، واكشف عنه ، وأتم له وأحرى أن يكسبه نبلا ، ويظهر فيه مزية . . » (١٤١) .

وتحدث محمد بن حيدر البغدادي — ٧١٥ هـ عن البلاغة قائلا :

« والبلاغة ليست الفاظا فقط ، ولا معاني فحسب ، بل هي الفاظ يعبر بها عن معان ، ولكن ليس كما اتفق ، ولا كيفما وقع ، لان ذلك لو جرى هذا المجرى لكان اكثر الناس بليغا . . . ولهذا السبب قال بعضهم في وصف كاتب بليغ : ان أخذ شبر اكفاه ، وان تناول طوماراً ملاه . يذهب بهذا القول الى ان البليغ يحتاج في موضع الى الاطالة والاسهاب ، كما يحتاج في آخر الى الاختصار ، والايجاز ، الا ان اكثر ما عليه الناس في البلاغة : انها الاختصار ، وتقريب المعنى بالالفاظ القصار ، حتى اذا سئل بعض الناس عن البلاغة قال : هي لمحة دالة . مذهب العرب وعادتهم في العبارة ، فانهم يشيرون الى المعنى بأوحى اشارة ، ويستحبون ان تكون الالفاظ أقل من المعاني في المقدار والكثرة » (١٤٢) .

وحشر ابن منقذ — ٥٨٤ هـ كثيرا مما قيل في تجويد الكلام وتحسينه ، في باب التهذيب والترتيب من كتابه ، فقال : « . . ولكن كلامك سليما من التكلف ، بريئا من التعسف ، وليحط لفظك بمعناك ، ويشتمل على مغزاك ، فان البلاغة سرعة جواب في صواب ، وأن تقول فلا تبطىء ، وتصيب فلا

(١٤١) الدلائل : ٣٥ .

(١٤٢) قانون البلاغة — ٢٣ — ٢٤ .

مكتبتنا العربية

تخطئ ، . والعي اكثار في اعذار ، وابطاء في اخطاء . . وقدر اللفظ على قدر المعنى ، لازائداً ولا ناقصا ، كمـا قيل في مدح بعض الكتاب : كأن الفاظه قوالب معانيه . وقيل في آخر : كان اذا أخذ شبرا كفاه ، وان أخذ طومارا ملاه . واستعمل التطويل في مكانه ، والتقصير في مكانه . . واعلم أن خير الكلام المطمع الممنع ، واحسنه ما قل ودل ، وجل ولم يمل ..»(١٤٣).

وذهب الرازى ٦٠٦ هـ الى ان البلاغة : « بلوغ الرجل بعبارته كنه ما في قلبه » ، مع الاحتراز عن الايجاز المخل والاطالة المملة . » (١٤٤) .

وقال السكاكي — ٦٢٦ هـ : « البلاغة هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها ، وايراد انواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها . ولها — أعني البلاغة — طرفان أعلى وأسفل متباينان تباينا لايتراءى له ناراهما ، وبينهما مراتب تكـاد تفوت الحصر متفاوتة ، فمن الاسفل تبتدىء البلاغة وهو القدر الذي اذا أنقص منه شيء التحق ذلك الكلام بما شبهناه في صدر الكتاب من اصوات الحيوانات ، ثم تأخذ في التزايد متصاعدة الى أن تبلغ حد الاعجاز ، وهو الطرف الاعلى ، وما يقترب منه » (١٤٥) .

وقال ابن الاثير — ٦٣٧ هـ : « اما البلاغة فان أصلها — في وضع اللغة — من الوصول والانتهاء ، يقال : بلغت المكان ، اذا انتهيت اليه ، وبلغ الشيء منتهاه وسمي الكلام بليغا من ذلك ، أى انه قد بلغ الاوصاف اللفظية والمعنوية.

والبلاغة شاملة للالفاظ والمعاني ، وهي أخص من الفصاحة ، كالانسان من الحيوان ، فكل انسان حيوان ، وليس كل حيوان انسانا . وكذلك يقال : كل كلام بليغ فصيح ، وليس كل كلام فصيح بليغا .

---

(١٤٣) البديع — ٢٩٧ — ٢٩٨ . (١٤٤) نهاية الايجاز : — ٩ .

(١٤٥) المفتاح : — ٢٢٠ — ٢٢١ .

ويفرق بينها وبين الفصاحة من وجه آخر غير الخاص والعام ، وهو أنها لاتكون الا في اللفظ والمعنى بشرط التركيب ، فان اللفظة لايطلق عليها اسم البلاغة ويطلق عليها اسم الفصاحة ، اذ يوجد فيها الوصف المختص بالفصاحة وهو الحسن ، وأما البلاغة فلا يوجد فيها ، لخلوها من المعنى المفيد الذي ينتظم كلامـا » (١٤٦) .

وقال الصفدي — ٧٦٤ هـ معقبا على هذا بقوله : (أقول : قد ادعى أن هذا الفارق الثاني غير الاول ، وهو هو بعينه ومينه . فانه أراد أولا : كل كلام فصيح يطلق عليه أنه بليغ ولا ينعكس (٥) ومعنى هذا اذا قلنا :

« قفا نبك من ذكرى حبيب ومنـزل »

فان هذا الكلام بليغ باعتبار ان معناه بالغ في صوغ تركيبه الى حد له توفيه بتمام المراد ، وفصيح باعتبار بيان مفرداته وحسنها وعذوبتها في السمع ، واذا فككنا هذا التركيب ، وأخذنا كل فرد من الفاظه ، كان كل فرد فصيحا ولا يكون بليغا لعدم التركيب في المعنى ، فكانت الفصاحة أعم من البلاغة لأنها وجدت في الافراد والتركيب ، وكانت البـلاغة أخص لكونها لاتتناول إلا المركب فقط ، فحيث وجدت البلاغة مع عذوبة الالفاظ وجدت الفصاحة ولا ينعكس . فصح أن البلاغة كالانسانية في خصوصها ، والفصاحة كالحيوانية في عمومها . وهذا المعنى موجود بعينه في الفارق الثاني الذي أبداه ، فأنه قال : ان البـلاغة لا تكون الا في اللفظ والمعنى بشرط التركيب . . الى آخره) (١٤٧) .

---

(١٤٦) المثل السائر : — ١/١١٨-١١٩ .

(٥) أخطأ الصفدي في نقل عبارة ابن الاثير هذه ، وصوابها : كل كلام بليغ فهو فصيح ، وليس كل فصيح بليغا . وقد نقلها هو صوابا في النص ذاته .

(١٤٧) نصرة الثائر : — ٧٧ — ٧٨ .

والحق أن الحديث عن اللفظة المفردة وما يمكن أن تنعت به غير الحديث عن جملة الكلام المركب من تلك الالفاظ ومعناه ، وإن انتهى الحديث في كليهما الى عموم الفصاحة وخصوص البلاغة .

وأماابن أبي الاصبع — ٦٥٤ هـ فقد ذهب — في حسن البيان — الى القول : « . . وحقيقة حسن البيان اخراج المعنى في أحسن الصور الموضحة لـه وايصاله الى فهـم المخاطب بأقرب الطـرق وأسـهلها ، فإنه عين البلاغة .. » (١٤٨) .

وذهب التنوخي — حوالي ٦٩٧ هـ في البلاغة مذهبا لا يخلو من غرابة بعد ذكره لمعناها اللغوي فقال : « . . ومعنى البلاغة انتهاء الشيء الى غايتـه المطلوبة . . . والبلاغة تتعلق بالمعنى فقط ، وهو ان يبلغ المعنى من نفس السامع مبلغه ، ومما يعين على ذلك الفصاحة في كلام العرب ، لا أن الفصاحة من أجزاء البلاغة ، فان الاعجمي اذا كلم الاعجمي ، فبلغ منه المعنى مبلغه كان كلامه بليغا ، ووصف بالبلاغة ، وليس من كلام العرب » (١٤٩) .

فأن أراد بقوله « وليس من كلام العرب » أن الاعجمي كلم صاحبه الاعجمي بلغتهما الاعجمية وبلغ منه ما بلغ فقد فاته أن الحديث عن البلاغة العربية لا بلاغة اللغات الاخرى ، وأن اراد انه كلم صاحبه بكلام عربي ، مشوب بالعجمة التي عد معها انه ليس من كلام العرب ، فالمتحدث بليغ ايضا في نظر صاحب الاعجمي وامثاله لا غير ، فهو ليس ببليغ ولا فصيح في نظر العرب فلا وجه للاحتجاج به وبكلامه على العرب والعربية وبلاغتهما ، وقد أوضح الجاحظ من قبل ما كان قد عناه العتابي بقوله : كل من أفهمك حاجته

(١٤٨) بديع القرآن : — ٢٠٤ .

(١٤٩) الاقصى القريب : — ٣٣ .

مكتبتنا العربية

فهو بليغ . بل لقد ذهب أبو النجم العجلي الى وصف الحمار بالفصاحة في آذان الاتن مع انه أعجم عند الناس فقال :

« أعجم ، في آذانها فصيحا » (١٥٠)

فلا ادري أي وجه للاحتجاج على العرب فيما اشترطوه في فصاحة كلامهم وبلاغته بكلام الاعجمي للاعجمي ، بلغتهما أو بالعربية الملثوبة الملحونة ؟؟

ولقد ذهب شهاب الدين محمود الحلبي — ٧٢٥ هـ الى مثل ما ذهب اليه الرازي في البلاغة فقال : « البلاغة أن يبلغ المتكلم بعبارته كنه مراده ، في ايجاز بلا اخلال ، واطالة من غير إملال » (١٥١) .

وذهب الى مثل هذا شهاب الدين النويرى — ٧٣٣ هـ من غير ما إشارة ، للاطالة وما اشترط فيها ، فقال : « فأما البلاغة فهي أن يبلغ الرجل بعبارته كنه مافي نفسه . ولا يسمى البليغ بليغا الا اذا جمع المعنى الكثير في اللفظ القليل ، وهو المسمى ايجازا . . . » (١٥٢) .

وأورد كثيرا مما قيل في البلاغة ، وأخطأ في نسبة غير قليل مما أورده منها منسوبا (١٥٣) .

ومع ان القزويني — ٧٣٩ — هـ ملخص لمفتاح العلوم للسكاكي فقد ذهب الى غير ما انتهى اليه السكاكي حيث قال : « والبلاغة في الكلام مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته وهو مختلف ، فان مقامات الكلام متفاوتة ، فمقام كل من التنكير والاطلاق والتقديم والذكر يباين مقام خلافه ، ومقام الفصل يباين مقام الوصل ومقام الايجاز يباين مقام خلافه ، وكذا خطاب الذكي

(١٥٠) اللسان : — مادة / نصح .
(١٥١) حسن التوسل : — ١٠٣ .
(١٥٢) نهاية الارب : — ٤/٧ .
(١٥٣) نفسه : — ٦/٧ — ٩ .

مكتبتنا العربية

مع الغبي . ولكل كلمة مع صاحبتها مقام . وارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب ، وانحطاطه بعدمها ، فمقتضى الحال هو الاعتبار المناسب. فالبلاغة راجعة الى اللفظ باعتبار افادته المعنـى بالتركيب وكثيرا ما يسمى ذلك فصاحة أيضا . ولها طرفان: أعلى وهو حد الاعجاز وما يقرب منه وأسفل وهو ما اذا غير الكلام عنه الى ما دونه ، التحق — عندالبلغاء بأصوات الحيوانات وبينهما مراتب كثيرة، وتتبعها وجوه أخر تورث الكلام.

وفي المتكلم : ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ : نعلم أن كل بليغ فصيح ، ولا عكس ، وأن البلاغة مرجعها الى الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد ، والى تمييز الفصيح من غيره . والثاني منه مايبين في علم متن اللغة أو التصريف أو النحو ، وأن يدرك بالحس ، وهو ما عدا التعقيد المعنوي .

وما يحترز به عن الاول علم المعاني ، وما يحترز به عن التعقيد المعنوي علم البيان وما يعرف به وجوه التحسين علـم البيان ، والثـلاثة علم البديع » (١٥٤) .

وقد أخذ اكثر الذين جاؤوا بعده بهذا الذي انتهى اليه القزويني في حد البلاغة واقسامها ، وبخاصة أولئك الذين اتخذوا من تلخيصه أو ايضاحه قطب الرحى لمؤلفاتهم البلاغية . كبهاء الدين السبكي — ٧٧٣ هـ (١٥٥) وسعد الدين التفتازاني — ٧٩١ هـ (١٥٦) ، وأبي يعقوب المغربي — ١١١٠ هـ (١٥٧) ، ومحمد بن عرفة الدسوقي — ١١٣٠ هـ (١٥٨) وغيرهم من أصحاب الشروح

(١٥٤ – ١٥٨) انظر ايضاح القزويني ، وعروس الافراح ، ومختصر السعد ، ومواهب الفتاح وحاشية الدسوقي : — كلها من شروح التلخيص — ١/١٢٢ — ١٢٧ ،وتلخيص القزويني : ٣٣ — ٣٧ .

لتلخيصه أو ايضاحه والمختصرات والحواشي والتعليقات التي دارت في فلكهما .

غير ان العلوى — ٧٤٩ هـ جاء بشيء مما ذهب اليه ابن الاثير وما ذهب اليه الرازى ، وما ذهب اليه غيرهما ، فقال : « اعلم ان البلاغة في وضع اللغة هي الوصول الى الشيء والانتهاء اليه ، فيقال : بلغت البلد أبلغه بلوغا والاسم منه البلاغة . وسمي الكلام بليغا ، لانه قد بلغ به جميع المحاسن كلها في الفاظه ومعانيه . وهو في مصطلح النظار من علماء البيان ، عبارة عن الوصل الى المعاني البديعة بالالفاظ الحسنة . وان شئت قلت : هي عبارة عن حسن السبك مع جودة المعاني .

والمقصود من البلاغة هو وصول الانسان بعبارته كنه ما في قلبه ، مع الاحتراز عن الايجاز المخل بالمعاني ، وعن الاطالة المملة للخواطر . . . واعلم ان البلاغة مختصة بوقوعها في الكلم المركبة دون المفردة فلا يوصف الكلام بكونه بليغا ، الا اذا جمع الامرين جمعا من حسن اللفظ ، وجودة المعنى فمتى كان هكذا ، وصف بالبلاغة ، فان كان المعنى جزلا ، واللفظ غير فصيح ، أو كان اللفظ فصيحا وكان معناه ركيكا ، فانه لا يوصف بالبلاغة أصلا . . . واعلم انه لا خلاف بين أهل التحقيق من علماء البيان ، أن الكلام لايوصف بكونه بليغا ، الا اذا حاز مع جزالة المعنى فصاحة الالفاظ ولا يكون بليغا الا بمجموع الامرين كليهما . فقد صارت البلاغة وصفا عارضا للالفاظ والمعاني كما ترى » (١٥٩) .

واقتصر ابن قيم الجوزية — ٧٥١ هـ على طائفة من القول في البلاغة واشتقاقها فقال : « قال علماء هذا الشأن : ان حد البلاغة : بلوغ الرجل بعبارته كنه ما في نفسه ، مع الاحتراز من الايجاز المخل والتطويل الممل .

(١٥٩) الطراز : — ١/١٢٢ — ١٢٨ .

وقال قوم : البلاغة ايصال المعنى الى القلب في احسن صورة من اللفظ .

وقال خالد بن صفوان : أبلغ الكلام ماقلت ألفاظه ، وكثرت معانيه وخير الكلام ما شوّق أوله الى سماع آخره .

وقال غيره : انما يستحق الكلام اسم البلاغة ، اذا سبق لفظه معناه الى قلبك . . . وقال علماء هذا الشأن : ان اشتقاق البلاغة من البلوغ الى الشيء وهو الوصول .

ويجوز — عندى — أن يكون الكلام البليغ : الذي بلغ من جودة الالفاظ ، وعذوبة المعاني الى غاية لا يبلغ الى مثلها الا مثله . » (١٦٠) .

وهذا الذي انتهى اليه خير — فيما أرى — من كثير مما نقله ، ولكن أكثر البلاغيين الذين جاؤوا بعد القزويني ، كانوا قـد اتخذوا من قوله في البلاغة مصطلحا لها ، ودخل في كتب التعريفات والمصطلحات ، فقال الشريف الجرجاني — ٨١٦ هـ : « البلاغة في الكلام : مطابقته لمقتضى الحال — المراد بالحال الامر الداعي الى التكلم على وجه مخصوص — مع فصاحته ، أى : فصاحة الكلام . » (١٦١)

ودخل المصطلح — بهذه الدلالة كذلك — في كتب البلاغة العربية المحدثة والمعاصرة . غير ان عدداً قليلاً من البلاغيين المحدثين آثر الاستعاضة عن لفظ البلاغة بغيره ، لعـل من أبرزهم الاستاذ امين الخولي الذي آثر عليه فن القول (١٦٢) .

كما ان هؤلاء من اشار الى ابتهام لفظ البلاغة وقصور مفهومه ، فقال استاذي الدكتور عبدالرزاق محيي‌الدين رحمه الله .

(١٦٠) الفرائد : ٩ .
(١٦١) التعريفات : ٤٠ .
(١٦٢) انظر : فن القول .

« . . ثم اعطف — بعد ذلك — على مصطلح البلاغة . وقد اخذت من بلوغ الشيء ، والانتهاء اليه ، فالكلام البليغ : ما بلغ الغاية في أداء المعنى والكاتب البليغ ، والشاعر البليغ : من بلغ القصد من عبارته .

وقد ظلت هذه الكلمة غير وافية بالمعنى الذي أريد لها أن تبلغه ، واستعملت ردفا للفصاحة وللبراعة والبيان وللبديع . كما ظلت مرددة بين أن تكون صفة للفظ ، أو صفة للمعنى ، أو صفة للاسلوب الذي يجمع بينهما ، الى أن استقر بها ، وبرفيقتها الفصاحة الامر ، فكان اللفظ من حصة الفصاحة ، وكان الاسلوب — اللفظ المركب مؤدى به معنى ، مع شرط الفصاحة — وكان أن حددت بـ — مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته — . . . والتعريف — على دقته وشموله — يتصف بالغموض والابتهام على الصورة التي يعرفها السادة الزملاء . وفي مفتاح العلوم وتلخيصه وشروحهما محاولات مجهدة لتوضيحه ومع هذه الصورة من الغموض . وظل التعريف كما هو في الكتب المحدثة . » (١٦٣)

وغير خاف أن البحث في البلاغة ، وليس في فن القول ولا غيره مما اقترح أن يكون بديلا عنها ، ولا في المقارنة والموازنة بينها وبين تلك البدائل المقترحة ، كما أن البحث معني بدلالة البلاغة على النحو الذي فهمت به عند المعنيين بها. وليس معنيا بعسر وغموض ماحدث به أو سهولته ووضوحه .

واستاذي رحمه الله لم يتردد في نعت حدها بالدقة والشمول ، ولم يعدل عنه الى غيره مع ما قاله فيه .

ومهما يكن من شيء ، فقد وقفنا على جل ما وصل الينا مما قيل في البلاغة ان لم أقل كله منذ العصر الجاهلي الى يومنا هذا ، ورأينا أن كل هذه الاقوال

(١٦٣) مفاهيم بلاغية : ٦ — ٧ .

— بما فيها قول العتابي — انما تنصرف الى الحذق والمهارة ، والاصابة والاجادة والاحكام والتمكن ، وغير ذلك مما يمكن أن يوصف به حذاق القول وصاغة الكلام لا الى مجرد ابلاغ السامع ما يريده القائل كيفما اتفق فهي تجلية المعنى العزيز باللفظ الوجيز وتطبيق المفصل قبل التحزيز ، وألاّ تبطئ ، والاقتصار على الايجاز وتنكب الفضول ، وتقريب بعيد الحكمة بأسهل عبارة ، ودنو المأخذ ، وقرع الحجة : والقول المفقه في لطف ، وما رضيته الخاصة وفهمته العامة ، وتخير اللفظ في حسن افهام ، واستباق اللفظ والمعنى ، فلا يكون اللفظ الى السمع اسرع من المعنى الى القلب ، ومطابقة فصيح الكلام لمقتضى الحال ، وغير هـــذه الاقوال التي لاتفضي الا الى تعزيز ما انتهوا اليه في تحقيقها لغة من أنها الافتنان في اختيار عناصر الكلام والمهارة في الصياغة أو النظم وتخليص الكلام من كل ما يمكن أن ينقض منه ، فهي نضج الكلام واكتماله .

★ ★ ★